

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الواحد والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الواحد والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٩

« سورة الأحقاف »

هذه السورة مكية وآياتها خمس وثلاثون

صلتها بما قبلها

تحدثت كلتا السورتين – الجاثية والأحقاف – عن القرآن الكريم ، وأنه منزل من عند الله العزيز الحكيم فى خلقه وتدبيره ، كما أن كلا من السورتين ذكرت نموذجاً شريراً من البشر ؛ ففى سورة الجاثية جاء ذكر اليهود وما أفاء الله عليهم من الخير « وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِيَ إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ » ولكنهم اختلفوا فيه بعد ماجاءهم العلم وبغى بعضهم على بعض ؛ حسداً وعناداً ، وكذلك الأمر فى سورة الأحقاف حيث عاند الكفار واستكبروا عن الحق ، قال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّاسَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ) .

بعض مقاصد هذه السورة :

١ - أنها - كشأن السور المكية - تدعو إلى العقيدة الصحيحة من توحيد الله - تعالى - إلى تصديق رسالة الرسل – عليهم السلام – إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب .

٢ – أنها تؤكد صحة رسالة رسولنا ﷺ وصدق ما جاءهم به عن الله – تعالى – .

٣ – أنها أوضحت ضلال الكفار وبهتانهم وخطأهم فى عبادة الأوثان والأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع .

٤ – أنها ردَّت على المشركين وسفَّهتهم فى زعمهم أن القرآن سحر مبين ، قال تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِيَ إِسْرَآئِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ) .

٥ – أنها جاءت بمثالين : أحدهما للولد الصالح البار بوالديه وقد بلغ كمال عقله ورشده فقال : (رَبِّ أَوْزِعْنِيَ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِيَ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ) وثانى المثالين جاءت به للولد الفاجر العاق لوالديه الذى يقابل نصحهما

له وحرصهما عليه بالسخرية والاستهزاء ، وذلك عندما يدعوانه إلى الإيمان بالله فيقول : (أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ) إلى أن يقول : (مَاهَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) .

٦ - عرضت السورة لأُولئك النفر من الجن الذين صرفهم الله ووجههم إلى رسول الله ﷺ لسماع القرآن الكريم فأنصتوا إليه عند سماعه ، ثم ذهبوا إلى قومهم منذرين ومخوفين لهم من أن يخالفوه ؛ لأن القرآن مصدق لما جاء به موسى - عليه السلام - ولأنه يهدى إلى الحق الثابت والصراط المستقيم ، وآمرين لهم باتباع ماجاء فيه ليغفر الله لهم ذنوبهم وينجيهم من عذاب أليم ، وذلك تنبيه وتوبيخ للمشركين ، حيث آمن به الجن وكفر به المشركون وعاندوا .

٧ - جاء فى هذه السورة أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يصبه إعياء أو ضعف أو تعب هو - سبحانه - قادر على إحيائهم بعد موتهم ، وحسابهم على ما اقترفوا من كفر ومعاصٍ فى الدنيا ، وهذا تهديد لهم . وكانت نهايتها أمرًا من الله لرسوله أن يصبر على تكذيب قومه وإيذائهم له كما صبر أصحاب العزائم العالية من الرسل - عليهم السلام - ونهاه - جل شأنه - أن يستعجل لهم العذاب فإنه آتيهم لامحالة ، و (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَايُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ) .

سبب تسمية السورة بهذا الاسم :

أنه قد ذكر فيها كلمة الأحقاف ، وهى اسم للمكان الذى كانت فيه مساكن عاد قوم هود ، وقد دمرهم الله بالريح الصرصر العاتية جزاء كبرهم وطغيانهم ، قال تعالى : (وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ) إلى قوله تعالى : (تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾
مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم
مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ۚ أَمْ لَهُمْ
شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۚ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ
مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾)

المفردات :

(وأَجَل مُّسَمًّى) : زمان محدود تنتهى عنده ؛ وهو مُدَّة بقاء الدنيا .

(أُنذِرُوا) : خُوِّفوا .

(مُعْرِضُونَ) : مولون ومضربون عنه ، من أعرضت عنه : أضربت ووليت عنه .

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى .

(شِرْكٌ) أى : مشاركة وإسهام .

(أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ) : بقية من علوم الأولين ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى بيانه فى الشرح .

التفسير

١ ـ (حمٓ) : هما حرفان من حروف المعجم تقدم الكلام فيهما وفيما يماثلهما من الحروف الواردة فى أوائل بعض سور القرآن الكريم كسورة البقرة وغيرها ، وكل ماقيل

فى هذا الشأن مبنى على فهم واجتهاد ، وليس له سند قاطع من كتاب الله - تعالى - أو من سنة رسوله ﷺ والأسلم والأحكم أن نترك أمر المراد منها إلى علم الله فنقول : الله أعلم بمراده .

٢ - (تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) :

أى : هذا القرآن العظيم منزل من عند الله العزيز الذى لايغالب ولا يقهر ، بل هو القاهر فوق عباده وهو - سبحانه - الحكيم فى خلقه وتدبيره ، وليس لأحد من الخلق دخل فى تأليف هذا القرآن الكريم على أية صورة من الصور .

٣ - (مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ) :

أى : ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما مما يعلمه ومالا يعلمه المخلوقون جميعاً إلَّا خلقاً ملازما للحق لا ينفك عنه ولا سبيل إلى العبث فيه ؛ قال تعالى : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا [١] » ، وقال تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً [٢] » وقال جل شأنه : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » [٣] فهذا الخلق منه - سبحانه - قد ارتبط بالتدبير الحكيم ، والتقدير العظيم ليدل به - تعالت عظمته - على تفرّده ووحدانيته وكمال قدرته ، وأنه هو الذى يجب أن يعبد دون سواه كما أن هذا الخلق للسموات والأرض وما بينهما مقدر بأجل وزمان ينتهى عنده ، ثم بعده يكون فناء الدنيا وقيام الساعة : « يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوٰتُ » [٤] وإن هؤلاء الكفار عن الهول والنكال الذى أنذروا وخوفوا به من أهوال الآخرة من الحشر والحساب والصراط والميزان وما ينتهى إليه أمرهم من العذاب المقيم - إن هؤلاء الكفار - معرضون عنه لا يلتفتون اليه ولا يفكرون فيه جهلا وكبراً واستهزاءً . .

---

(١) المؤمنون ، من الآية : ١١٥

(٢) ص ، من الآية : ٢٧ .

(٣) الدخان ، الآيتان : ٣٨ ، ٣٩

(٤) إبراهيم ، من الآية : ٤٨

وبعد أن بين الله - سبحانه - أنه منزل الكتاب الحكيم وأنه - وحده - خالق السموات والأرض وما بينهما على مقتضى حكمته ، وأن هؤلاء الكفار مع هذا كله معرضون ومدبرون عما خوفوا به من العذاب جاء قوله تعالى :

٤ - (قُلْ أَرَأَيْتُم مَّاتَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَٰوَاتِ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

جاء هذا القول الحكيم تسفيهاً لهم ، وقاطعاً عليهم سبيل اللجاج والجدل ، أى : قل - يا محمد - لهؤلاء الضالين المكذبين الذين يعبدون غير الله من مخلوقاته أو مما تصنعه أيديهم - قل لهم - : أخبرونى عما تعبدون من دون الله وتزعمون أنها آلهة تتزلفون إليها وتتقربون منها - أعلمونى وأرشدونى - عن المكان الذى استقلت آلهتكم بخلقه من الأرض أخلقوا الماء أو اليابس ؟ الشرق أو الغرب ؟ السهل أو الجبل ؟ الحيوان أم الجماد ؟ عالم البر أو عالم البحر ؟ دقيق المخلوقات أم عظيمها ؟ .

إن هذه المعبودات أقل شأناً وأدنى منزلة من أن تخلق شيئاً ، إنها مخلوقة لله ، أو مصنوعة بيد الإنسان الذى خلقه الله ، إنها لا تملك لكم رزقاً فى السموات ولا فى الأرض ، إنها لاتضر ولا تنفع ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

قل لهم - أيها الرسول على سبيل التدرج معهم - : (أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَٰوَاتِ) أى : بل ألهم شركة وإسهام مع الله - جل شأنه - فى خلق السموات؟ هل ساعدوا الله وأعانوه فى شىء من ذلك ؟ - قل لهم يامحمد - : (ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ) أى : هاتوا لى الدليل وأقيموا لدىَّ الحجة ، هل عندكم من كتاب من الكتب المنزلة من عند الله قبل القرآن تشهد لكم بذلك ؟ أو هل لديكم بقية من علوم الأولين تنطق باستحقاقهم العبادة وأنهم خلقوا شيئاً من الأرض ، أو اشتركوا فى خلق السموات ، أو هل اختصكم الله وحدكم بعلم من عنده يؤيد ما تدّعون (إن كُنتُمْ صَادِقِينَ) أى : إن كنتم محقين فى دعواكم فهاتوا مالديكم من الأدلة ؛ فإن الدعوى لا تصح مالم يقم عليها برهان عقلى أو دليل نقلى ، وحيث لم يقم عليها شىء من العقل أو النقل فقد تبين بطلانها ، وأقيمت الحجة عليكم وظهر ضلالكم وبهتانكم .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ
ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ
فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ
بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨)

المفـــردات :

(غَافِلُونَ) :أصله من : غفل عن الشيء : تركه وسها عنه ، والمراد هنا أنهم لاهون لا يسمعون.

(حُشِرَ النَّاسُ) : جمعوا يوم القيامة فى صعيد واحد .

(افْتَرَاهُ) : نسبه كذبًا إلى الله .

(تُفِيضُونَ فِيهِ) : تندفعون وتخوضون فيه .

التفســير

٥ ، ٦ -(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبادَتِهِمْ كَافِرِينَ) :

(وَمَنْ أَضَلُّ) الاستفهام هنا لإنكار أن يكون فى الضالين كلهم من هو أشد ضلالا من عبدة غير الله ، أى : ليس هناك من هو أبلغ ضلالا وأبعد إفكاً وانحرافاً عن الحق من هؤلاء الذين يعبدون غير الله من المخلوقات : أوثانًا أو ملائكة أو جنًّا أو بشرًا ، ويتركون عبادة السميع العليم القادر على كل شىء ، إنهم يعبدون معبودات لا ينفعون ولا يضرون ، قال

- تعالى - : « لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » .[1] إن هذه الآلهة المزعومة لا تستجيب ولا تلبى ما يطلبونه منها مدة بقاء السموات والأرض وإلى أن تقوم الساعة؛ إذ لا قدرة لها على ذلك فهى لا تسمع ولا تدرى ، قال تعالى : « إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ »[2] فإذا قامت القيامة وحشر النّاس وجمعوا فى صعيد واحد واشتد كربهم كانت هذه المعبودات أعداء لمن عبدوهم ، وكانوا عليهم ضدًّا يخالفونهم ويلحقون بهم الذل والهوان ، بعد أن اتخذوهم فى الدنيا ليكونوا لهم مجدًا وعزًّا وذخرًا ، قال تعالى : « وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا »[3] وقال أيضًا : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ »[4] . كما أن العابدين الضالين ينكرون - يوم القيامة - أنهم عبدوا هذه المخلوقات ، ويزعمون أنهم ما أشركوا بالله شيئًا ؛ قال - تعالى - حكاية عنهم : « ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ »[5] .

والمعنى : لا أحد أضل ولا أشقى ممن يعبدون آلهة غير الله لا تستجيب ولا تلبى نداءهم فى الدنيا ؛ إذ أنها لا تسمع ولا تبصر ، فهى جماد ، أمَّا إذا كانت من الجن أو الإنس أو الملائكة فإنهم مشغولون بأمر أنفسهم ، أو أن الله يحمى أسماعها عن أن تسمع دعاء هؤلاء ، فضلًا عن أنها لا تملك شيئًا ، وفى يوم الحشر تكون هذه المعبودات أعداء لعابديهم تكذبهم وتتبرأ منهم ، كما يتبرأ العابدون من معبوداتهم ويقولون : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » فيجمعون بين الشرك بالله والكذب ، وكل ذلك لا يغنيهم من الله شيئًا .

---

(١) سورة الرعد الآية : ١٤ (٢) فاطر ، من الآية : ١٤ (٣) سورة مريم الآيتان : ٨١ ، ٨٢

(٤) البقرة ، الآية: ١٦٦ (٥) الأنعام ، الآيتان: ٢٣ ، ٢٤

٧ـ (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى : وإذا تقرأ – يامحمد – على هؤلاء الكفار المعاندين آياتنا المنزلة عليك – وهى واضحات ظاهرات لا لبس فيها ولا غموض ، أو مظهرات ومُبيِّنات لما أُنزلت فى شأنه من الأُمور التى يلزم إظهارها وبيانها ، قال الذين كفروا وجحدوا هذه الآيات دون تدبر وتأمل – : (هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) أى : ماجئت به – يامحمد – سحر واضح بيّن ، وذلك لأنهم عجزوا عن الإتيان بمثلها ، وإذا سمعها غير المعاند آمن بها ، فلهذا قالوا عنها : إنها سحر بين ؛ لأنها تأخذ بألباب العقلاء فيؤمنون .

٨ـ (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

فى هذه الآية الكريمة ينكر الله عليهم ويوبخهم على شناعة قولهم : إنه ﷺ افترى وكذب على الله – جل شأنه – ونسب إليه القرآن .

أى : بل أيقولون افترى محمد على ربه القرآن ونسبه إليه ؟ قل لهم – مسفها – : لو افتريتُه ونسبتُه زورًا وبهتانًا إلى ربى – كما تزعمون – لعاجلنى الله بعقوبة هذا الكذب ، وأنتم لا تقدرون على منع ربى – جل شأنه – وكفه عن معاجلتى ، ولا تستطيعون دفع شىء من عقابه عنى ، فكيف أفترى القرآن على الله وأتعرض لعقابه ؟ أيفعل ذلك من لديه بقية من عقل ؟ ! .

(هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ) أى : هو – سبحانه – عليم بالذى تأخذون وتندفعون بحماقة وتسرع فى القدح والذم والطعن فيه ، وتسميته سحرًا تارة وافتراءً تارة أُخرى إلى غير ذلك من ضروب النيل من كتاب الله .

(كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) أى : يكفينى ويملأ قلبى اطمئنانًا أن الله – سبحانه – شهيد بينى وبينكم ، يشهد لى بالصدق فيما أُبلغه لكم عنه ، ويشهد عليكم بالجحود ، والنكران والكفر .

وفى هذه الآية الكريمة ما لا يخفى من التهديد والوعيد على إفاضتهم واندفاعهم فى تنقيص ما أوحى الله به إلى رسوله .

(وَهُوَ الْغَفُورُ) أى : وهو وحده الذى يغفر الذنوب ويتجاوز عن السيئات ، بل قد يبدلها حسنات ، وهو (الرَّحِيمُ) بعباده يفتح لهم أبواب رحمته وييسر لهم طرق الخير ، وينعم عليهم بنعمه الدقيقة التى لا يفطن إليها إلَّا من جعل الله له نورًا فى قلبه .

وفى ختم وتذييل الآية الكريمة بهذين الوصفين الجليلين له – سبحانه – فتح لِبَاب الرجاء فى الله ، وسدٌّ لِبَابِ اليأس والقنوط من رحمته . أى : هلم أيها العاصون والكافرون إلى ساحة رضوانى ، تتوبون فأتوب عليكم ، وتستغفرون فأغفر لكم ، وتلجأون إلى رحابى فأضمكم إلى جنابى وأشملكم بفيض رحماتى .

(قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ) : ما كنت مستحدثًا فى الدين ، وهو من قولهم : فلان بدْعٌ فى هذا الأمر ، أى : هو أول من فعله ، فيكون المعنى : قل : ما أنا أول من جاء بالوحى من الله .

التفسير

٩ - (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

قيل فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : إن الكفار كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ آيات عجيبة ، ويسألونه عمّا لم يوح به الله من الغيوب - عنادًا ومكابرة- فأمر الله رسوله أن يقول لهم : (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ) أى : قل يامحمد لهؤلاء الكفار المنكرين الظالمين : ما أنا أول من جاء بالوحى من عند الله ، بل قد أرسل الله الرسل قبلى مبشرين ، اومنذرين ومبلغين ما أنزل إليهم من ربهم ؛ ولا يقترحون على الله الآيات ، ولا يتحدثون عن الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، فكيف أقترح على الله تلك الآيات التى تريدونها . أو أخبركم بالغيب الذى استأثر الله بعلمه ،فكيف تستنكرون وتستبعدون بعثى إليكم وأنا على هداهم وطريقتهم ؟

(وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ) أى : لا أعلم مايحدث بى ، أأخرج من بلدى وأهلى كما أخرجت الأنبياء - عليهم السلام- قبلى ؟ أم أقتل كما قتل بعض الأنبياء قبلى ؟ ولا أدرى مايفعل بكم ؟ أأمتى المكذّبة أم أمتى المصدقة؟ أأمتى المرمية بالحجارة من السماء قذفًا أم المخسوف بها خسفًا ؟أو المراد : أتؤمنون فتدخلوا الجنة ، أم تكفرون فتعذبوا ، وتستأصلوا بكفركم وشرككم ؟ثم أنزل الله بعد ذلك قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ »[١] فعرف أنه لا يقتل ، ثم أنزل : « هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »[٢] فعرف أن دينه سيظهر على الأديان كلها ، ثم أنزل : «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »[٣] فأخبره الله بما يصنع به وما يصنع بأمته .

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ) أى : ما أنا إلّا متبع وممتثل وحى الله أبلغه إليكم ، وليس لى من الأمر شىء فيما تقترحون وتطلبون .

---

(١) الإسراء ، من الآية : ٦٠
(٢) التوبة ، من الآية : ٣٣
(٣) الأنفال ، الآية : ٣٣

(وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) أى : لست إلّا منذركم ومخوفكم عقاب الله حسبما يوحى إلىّ مظهرا ومبيّنًا ذلك لكم بالحجج القاطعة والمعجزات الباهرة التى يؤيدنى الله بها .

والمعنى الإجمالى : لست أول رسول جاء بالوحى من الله ، بل قد سبقنى الرُّسل إلى أقوامهم مبشرين الطائعين ، ومنذرين ومخوفين الكافرين والعاصين ، ولست أعلم مايحصل لى فى الدنيا من البقاء فى بلدى أم أخرج إلى غيرها وأُهاجر إلى سواها ، أم أُقتل كما قتل بعض الأنبياء قبلى ، ولا أدرى مايحصل لكم : أتكذبون فتعذبوا وتستأْصلوا أم تصدقون فتنصروا ثم تدخلوا الجنة ، ولست إلّا متبعًا وممتثلاً أمر ربى ؛ فليس لى من الأَمر شىءٌ فيما تقترحون وتطلبون من الآيات الغريبة والمعجزات العجيبة ، وما أنا إلّا منذر لكم ومخوف عقاب الله وَفق مايأْمرنى به رَبِّى مُؤَيَّدًا منه - سبحانه - بالحجج والبراهين الساطعة . وحسبكم القرآن فى الدلالة على صدقه ، فإنه آية الآيات .

١٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إِسْرَآئِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

روى البخارى ومسلم والنسائى عن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - قال : (ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأَحد يمشى على وجه الأَرض : إنه من أهل الجنة إلّا لعبد الله بن سلام - رضى الله عنه - وفيه نزلت : (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ) وعلى هذا تكون الآية مدنية .

وقد رُوى أنه (لَمَّا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة نَظَر عبد الله بن سلام إلى وجهه ﷺ فَعَلِمَ أنه ليس وجه كَذَّاب ،وتأَمَّلَهُ فتحقق أنه النبىُّ المُنْتَظَر ، وقال له : إنِّى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلّا نبىّ : ما أوَّل أَشْرَاط الساعة ؟ وما أوَّل طَعَام يأْكله أهل الجنَّة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال - عليه الصلاة والسلام - : أمَّا أول أشراط الساعة

فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأمَّا أول طعام يأكله أهل الجنَّة فزيادة كبد الحوت، وأمَّا الولد فإذا سبق ماءُ الرجل نزعه وإذا سبق ماءُ المرأة نزعته، فقال عبد الله: أشهد أنَّكَ رسول الله حقًّا، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قومٌ بهت، وإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى[1] عندك، فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله ﷺ: أى رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، فقال الرسول ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله؟ فقالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر).

وعلى هذا فالشاهد هو عبد الله بن سلام.

والمعنى: قل – يا محمد لهؤلاء اليهود –: أخبرونى إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، واجتمعت شهادة أعلم بنى إسرائيل على نزول مثله ومسارعته ومبادرته إلى الإيمان به مع استكباركم عليه، وعن الإيمان بالذى جاء به، ألستم أضل الناس وأظلمهم؟ والمراد من قوله – تعالى –: (عَلَىٰ مِثْلِهِ) هو التوراة؛ فإن كلاًّ منهما مُنزل من عند الله، أو على مثل القرآن الكريم فى المعنى، وهو ما فى التوراة من المعانى المطابقة لمعانى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد، ويدل على ذلك قوله – تعالى –: (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ)[2]، وقوله: (إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ)[3]، وقيل: (مِثْلِ) فى قوله تعالى: (عَلَىٰ مِثْلِهِ) كناية عن القرآن نفسه مبالغة، ويكون المعنى: وشهد شاهد على القرآن بأنه من عند الله، وقيل: الشاهد موسى – عليه السلام – وشهادته بما فى التوراة من بعثة النبىّ ﷺ وبه قال الشعبى.

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أى: والله – تعالى – لا يأخذ بيد الظالم فيرشده ويهديه إلى سواء السبيل؛ فأنتم بظلمكم أنفسكم واستعلائكم على الإذعان للحق لا يهديكم الله، وستمكثون فى الحيرة والضلال ومأواكم النار وبئس المصير.

(١) بهته بهتا وبهتاً وبهتانا: قال عليه ما لم يفعل: القاموس.

(٢) الشعراء، الآية: ١٩٦ (٣) الأعلى، الآية: ١٨

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ
إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾
وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ
لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾)

المفـــردات :

(إِفْكٌ) : كذب وبهتان .

(إِمَامًا) : قدوة وأسوة يؤتم ويقتدى به .

التفسـير

١١ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ) :

ورد فى سبب نزول هذه الآية الكريمة أقوالٌ ، منها : أنها نزلت فى بنى عامر وغطفان وتميم وغيرهم لَمَّا قالوا ذلك فى شأن مَنْ أَسْلَمَ منهم ، وقيل : إنها نزلت فى اليهود لَمَّا أسلم عبد الله ابن سلام ، وقيل : نزلت لَمَّا أسلمت زنّيرة - وكانت أمة لعمر بن الخطاب وقد أسلمت قبله وكان يضربها لإسلامها - فأُصيبت فى بصرها ، فقال المشركون لها : أصابك اللّات والعزى ، فرد الله عليها بصرها ، فقال عظماء قريش : لو كان ما جاء به محمدٌ خيرًا ما سبقتنا إليه زنيرة .

أى : قال الذين كفروا بالقرآن الكريم وبالرسول العظيم - استكبارًا واستعلاءً - قالوا فى شأن المؤمنين الذين آمنوا برسول الله وبما أُنزل عليه : لو كان خيرًا وهداية ما سبقَنَا فى الإيمان به هؤلاء الأدنون الأراذل والمستضعفون والعبيد والإماء .

وما دفع هؤلاء الكافرين المكذبين إلى ما ذهبوا إليه إلا أنهم يظنون أن لهم عند الله وجاهة ومنزلة ومكانة ، فهم يبنون أمر الدين على أمر الدنيا ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك عنهم فقال - تعالى - : (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) والكفار بظنهم هذا قد أخطأوا خطأً بينًا ؛ فقد غاب عنهم ، بل أعماهم كبرهم فلم يهتدوا إلى أن الميل إلى الخير والانعطاف نحو الرسل واتباعهم إنما يكون ذلك منوطًا بكمالات نفسية وملكات رُوحيَّة ، مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا والإقبال على الآخرة وما يقرب منها : (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) أى : أنهم لَمَّا لم يصيبوا الهدى والرشاد بالقرآن الكريم مع وضوح إعجازه عادوه ونسبوه إلى الكذب ، وقالوا : هذا كذبٌ قديم وأساطير مأثورة نسبها محمد إلى الله .

وقيل لبعضهم : هل فى القرآن : (من جهل شيئًا عاداه ؟) قال : نعم ، قال الله - تعالى - : (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) ، ومثله : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ »[1] .

١٢ - (وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ) :

أى : ومن قبل القرآن كانت التوراة التى أنزلها الله على موسى - عليه السلام - إمامًا يقتدى به فى شرائعه - سبحانه - ورحمة لمن صدق به وعمل بما جاء فيه ؛ وأنتم أيها الكفرة المكذبون لا تنازعون فى ذلك ؛ فالتوراة التى تؤمنون بها مشتملة على البشارة بمحمد ﷺ فإذا سلمتم أنها من عند الله - وأنتم مقرون بذلك - فاقبلوا حكمها بأن محمدًا رسولٌ - حقًّا - من عند الله .

(وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا) أى : وهذا القرآن كتاب رفيع القدر عظيم الشأن مصدق لما نزل قبله من الكتب ، وقد جاء لسانًا عربيًّا فصيحًا نازلًا بلغتكم التى برعتم فى

(١) يونس ، من الآية : ٣٩

فنونها وضروبها ، فكيف تنكرونه وتجحدونه ؛ وهو أفصح بيانًا وأظهر برهانًا وأبلغ إعجازًا من التوراة ؟

(لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ) أى : ليكون القرآن الكريم إنذارًا وتخويفًا متجددًا للذين ظلموا غيرهم بالافتراء والكذب عليهم ، كما ظلموا أنفسهم بحرمانها من الخير العظيم والنعيم المقيم فى الآخرة ، مع تعريضها للعذاب الأليم والهوان والذل فى النار ، كما يكون القرآن بشارة وإخبارًا بالمنزلة الكريمة عند الله للذين أحسنوا وأخلصوا أعمالهم وراقبوا مولاهم فى سرهم وعلانيتهم .

وفى هذا تحذيرٌ للمؤمنين أن يسلكوا مسالك الذين ظلموا ؛ ودعوة إلى الكافرين أن يتوبوا إلى الله ويرجعوا إليه ليعمهم بإحسانه وفضله ، فباب التوبة مفتوح ، والله ـ سبحانه ـ يقول : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ »[1] .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾)

التفسير

١٣ ـ (إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) :

أى : إن الذين قالوا بلسانهم تعبيرًا عما اشتملت عليه قلوبهم ، ودلالة على ما اطمأنت به نفوسهم ، وأذعنت له أفئدتهم ، قالوا : ربنا الله رعانا بإحسانه وحفّنا بلطفه ، وتكفل

(١) النساء ، من الآية : ١١٦

ـ سبحانه ـ تفضلا منه بأسباب حياتنا ، ثم استقاموا على شريعته فامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه ولزموا محجته فلا يلحقهم ما يخافونه ويكرهونه فى الآخرة ، ولا يُرَوَّعون ؛ لأنهم خافوه ـ سبحانه ـ فى الدنيا فأمنهم فى الآخرة ؛ إذ لا يجمع الله على المؤمن خوفين : خوف الدنيا وخوف الآخرة ، كما أنه لايصيبهم حزن ولا أسف على ما خلفوه فى الدنيا من مال أو ولد أوجاه ، فكل نعيم دون الجنة زائل .

١٤ ـ (أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) :

أى : أولئك الذين سمت بهم أعمالهم ، وعلت منزلتهم لدى ربهم هم أصحاب الجنة الذين يمكثون فيها أبدًا ، ويقيمون بها سرمدًا ، يتفضل الله عليهم بهذا النعيم الدائم كفاء وجزاء على ما كانوا يعملونه ـ بتوفيق الله ـ فى دنياهم من خير ، ويقدمون من برّ ، ويبذلون من طاعة .

(وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾)

المفـــردات :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ) : ألزمناه وأمرناه .

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً) : بكره ومشقة وتعب فى الحمل والوضع .

(وَفِصَالُهُ) الفصال : الفطام ، وهو مصدر (فَاصَل) فكأن الولد فاصل أمه والأم فاصلته .

(أَشُدَّهُ) : كمال قوته وعقله ورشده .

(أَوْزِعْنِى) : ألهمنى ووفقنى .

مناسبة هذه الآيات لمـا قبلها :

لما كان أمر الأولاد يختلف مع والديهم برًّا وعقوقاً كما يختلف أمر الأمم مع أنبيائهم استجابة لهم وإعراضاً عنهم كانت هذه الآيات متصلة بما قبلها .

التفسير

١٥ - (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً . . .) الآية :

سبب النزول :

هذه الآية الكريمة نزلت فى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - روى ذلك عن ابن عباس وعلىّ - رضى الله عنهم - .

قال علىّ - كرم الله وجهه - : هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أسلم أبواه جميعاً ، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره فأوصاه الله بهما ولزم ذلك .

وعند قوله - تعالى - : (وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ) قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : فأجاب الله أبا بكر فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون فى الله ، منهم : بلال ، وعامر بن فهيرة . ولم يدع شيئاً من الخير إلّا أعانه الله عليه .

وفى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أصبح منكم اليوم صائماً ؟ » قال أبو بكر : أنا . قال : « مَن تَبِع منكم اليوم جنازة ؟ » قال أبو بكر : أنا . قال : « مَنْ أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ » قال أبو بكر : أنا . قال : « فمن عاد منكم اليوم مريضاً ؟ » قال أبو بكر : أنا . قال رسول الله ﷺ : « ما اجْتَمَعْنَ فِى امرىء إلّا دخَلَ الجنة » .

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : ودعا أبو بكر أيضاً فقال : (وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى) فأجابه الله تعالى ؛ فلم يكن له ولد إلّا آمنوا ، وقد أدرك أبواه وولَدُه عبد الرحمن وولده أبو عتيق النبىّ ﷺ وآمنوا به ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة - رضى الله عنهم أجمعين - .

وقد استدل الإمام علىّ - كرم الله وجهه - بهذه الآية الكريمة مع التى فى سورة لقمان : « وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ » مع قوله - تعالى - فى سورة البقرة : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » استدل - رضى الله عنه - بذلك على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوى صحيح ، ووافقه على ذلك عثمان وجماعة من الصحابة - رضى الله عنهم - فعن معمر بن عبد الله الجهنى قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر ، فذُكر ذلك لعثمان - رضى الله عنه - فأمر عثمان برجمها فبلغ ذلك عليًّا - كرم الله وجهه - فأتاه فقال له : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر وهل يكون ذلك ؟ فقال له علىّ : أما تقرأ القرآن ؟ فقال : بلى . قال : أما سمعت الله - عز وجلّ - يقول :(وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) وقال : (حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) فما نجده بقى إلّا ستة أشهر . قال عثمان - رضى الله عنه - : والله مافطنت بهذا .

قال معمر : فوالله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة أشبه منه بأبيه ، فلما رآه أبوه قال : هذا ابنى ولا أشك فيه .

وفى هذا إشارة إلى أن مدة الحمل والرضاع معاً لا تتجاوز الثلاثين شهرا ؛ فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع واحد وعشرون

شهرًا ، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرًا ، وإذا وضعته لستة أشهر فحولان كاملان ؛ لأن الله - تعالى - يقول : (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) .

والمعنى : وألزمنا الإنسان وأمرناه أن يحسن إلى والديه إحساناً عظيماً وأن يبرهما براً كريماً ، فالإحسان إلى الوالدين هو ثانى أفضل الأعمال ، فعن ابن مسعود- رضى الله عنه - أنه سأل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : « الصلاة على وقتها » . قلت : ثم أىّ ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أىّ ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » متفق عليه .

كما عد رسول الله ﷺ عقوقهما ثانى أكبر الكبائر ، فعن أبى بكرة نفيع بن الحارث - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ - ثلاثاً - قلنا : بلى يارسول الله ، فقال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين . وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ، فمازال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » متفق عليه .

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا) أى : قاست بسببه فى حال الحمل به مشقة وتعباً من وحم وغثيان وثقل وكرب (وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا) أى : بمشقة أيضاً من الطلق وشدته (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) أى : أنها لم تقف مشقتها وتعبها عند الوضع بل استمر ذلك فى مدة رضاعه وفطامه ؛ فقد سهرت عليه وقامت على أمره وعانت من تربيته فى تلك الفترة الدقيقة من حياته ماجعلها تتعب ليستريح ، وتشقى ليسعد ، وتسهر لينام ، كل ذلك مع حسن رعاية وكمال عناية رجاء أن تستمر حياته ويمتد به العمر وتنعم به كبيرًا كما سعدت به صغيرًا .

(حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ) أى : حتى إذا قوى وشب واكتهل واستحكمت قوته (وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) أى : تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه ؛ فسنُّ الأربعين تمام النضج وتمام الحلم ، فعنده تكمل الملكات وتتناهى الكمالات ، ولايرجى لأحد بعد أن يبلغ هذا العمر أن يزاد فى عقله ، فإذا بلغ هذه السن (قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ) أى : اتجه إلى ربه الذى رعاه وربّاه وجعله يتقلب فى مَنِّه وكرمه وإنعامه قائلا : يارب رغبنى وألهمنى أن أقوم بحق نعمتك العظيمة التى أنعمت بها على ، واهدنى إلى القيام بصرفها

وتوجيهها إلى ما خلقتها له ، فنعمك يارب وفيرة وآلاؤك جليلة ؛ فقد وفقتنى إلى نعمة الإسلام ، وجعلتنى من خير أمة أخرجت للناس ، وأنعمت علىّ بالصحة والعافية والغنى عن الناس ، ورزقتنى الولد ولم تجعلنى فردًا منقطع الذرية ، وأسألك أن تديم علىّ شكر النعمة التى أنعمت بها على والدىّ من الإيمان بك وبرسولك ، وبالتحنن والشفقة علىّ حتى ربيانى صغيرًا (وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ) أى : اجعل عملى كثيرًا عظيماً سالماً من عدم قبولك له ، وذلك بأن يكون خالصاً من الرياء والعجب حتى يكون على وفق رضاك (وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيَ) أى : اجعل الصلاح والبر وعمل الخير ساريا فى ذريتى راسخاً فيهم حتى يكونوا لك عبيد حقّ ، ولى خلف صدق . (إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أى : إنى رجعت عما كنت عليه مما لا ترضاه أو يشغلنى عنك ، وإنى من الذين أسلموا إليك أمرهم وأخلصوا أنفسهم لك وأفردوك بالعبادة .

جاء فى كتاب الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى : وكان مالك بن أنس يقول : اشتكى أبو معشر ابنه إلى طلحة بن مصرّف ؛ فقال له : استعن عليه بهذه الآية وتلا : (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِح لِي فِي ذُرِّيَّتِيَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) :

نقول : هذا توجيه سديد وإرشاد حكيم ؛ فخير الدعاء ما كان بالمأثور من كتاب الله - تعالى - أو من السنة النبويّة المطهرة .

١٦ - (أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ) :

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة التى بها علت منزلتهم وسمت مكانتهم عند ربهم يتقبل الله - سبحانه - منهم أفضل أعمالهم وأحسنها - من الأعمال المفروضة والمندوبة - فيجازيهم عليها أفضل جزاء وأكمل ثواب ، أما الأعمال المباحة فليست محل ثواب إلا إذا اقترنت بها نيّة الطاعة والقربى لله - عزّ وجل - وذلك كمن يأكل ناوياً أن

أن يتقوى بذلك على أمر مفروض أو مندوب ونحو ذلك ، فإن الله يثيبه عليه ، والحكم عكس ذلك إذا اقترنت بالمباح ولابسته نية المعصية فإن الله يعاقب عليه « وإنما لكل امرىء مانوى » .

(وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ) أى : يتجاوز الله عن سيئات المذنبين ؛ لتوبتهم المشار إليها بقوله - تعالى - فى الآية السابقة : (إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أو لغلبة حسناتهم على سيئاتهم ، لقوله - تعالى - : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ »[1] أو لاجتناب الكبائر ، لقوله - تعالى - فى سورة النساء : «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَاتُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيماً » أما أصحاب السيئات الذين لم يكونوا من هؤلاء وهم مسلمون مؤمنون ، فأمرهم مفوض إلى الله تعالى ، فإما أن يعفو عنهم أو يعاقبهم .

وهؤلاء الذين يتجاوز الله عن سيئاتهم (فِىٓ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ) أى : فى عداد أصحاب الجنة منتظمون فى سلكهم يحقق الله لهم وعد الصدق الذى كانوا يوعدون به فى الدنيا على ألسنة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - من الجزاء الحسن والنعيم المقيم فى جنة عرضها السموات والأرض ، ويتمتعون فيها بما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فسبحانه من إله كريم برّ رحيم .

(وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾)

---

(١) سورة هود ، من الآية : ١١٤

المفردات :

(أُفٍّ لَّكُمَا) الأُفُّ : صوت يصدر عن المرء عند تضجره ، وأصله : الوسخ الذى حول الظفر ، وقيل : الأُف : وسخ الأذن ، يقال ذلك عند استقذار الشىء ثم استعمل ذلك عند كل شىء يُتضجر ويُتأذى منه[١] .

(أُخْرَجَ) : أبعث من القبر بعد الموت .

(وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ) : وقد مضت الأزمان .

(وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ) : وهما يلجآن إلى الله أن يدفع الكفر عن ولدهما .

(وَيْلَكَ) : هَلاكا لك ، وأصل الويل : دعاء بالهلاك يُقام مقام الحث على الفعل أو الترك ؛ إشعارًا بأن ماهو مرتكب جدير أن يُهْلِك مرتكبَه ، والمراد هنا : الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الدعاء بالهلاك .

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أباطيل وأكاذيب السابقين التى سطروها فى الكتب من غير أن يكون لها حقيقة .

(حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) : ثبت ووجب .

التفسير

١٧ - (وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا...) الآية :

هذه الآية الكريمة عامة تتناول كل كافر عاق لوالديه منكر للبعث ؛ فقد جاء فى الاية التالية : (أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ . .) فدل ذلك على أن الحكم عام لكل من يقول ذلك لوالديه ، ونزولها فى شخص معين لاينافى العموم ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالمراد من الذى قال لوالديه أف لكما : كل من يقول ذلك لهما .

---

(١) اللسان : مادة (أفف) .

وجاء فى كتاب روح المعانى للعلامة الآلوسى : وزعم مروان – عليه ما يستحق – أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق – رضى الله عنهما – وردت عليه السيدة عائشة – رضى الله عنها – أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبد الله [بن المدائنى] قال : إنى لفى المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله – تعالى – قد أرى لأمير المؤمنين – يعنى معاوية – فى يزيد رأيا حسناً ، أن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن ابن أبى بكر : أهرقلية ؟ إن أبا بكر – رضى الله عنه – والله ما جعلها فى أحد من ولده ، ولا لأحد من أهل بيته ، ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده . فقال مروان : ألست الذى قال لوالديه : (أُفٍّ لَّكُمَا) ؟ فقال عبد الرحمن : ألستَ ابن اللعين الذى لعن رسولُ الله ﷺ أباه ؟ فسمعت عائشة – رضى الله عنها – فقالت : مروان ؛ أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ؟ كذبت – والله – مافيه نزلت . نزلت فى فلان بن فلان .

ومعنى الآية : أن هذا الولد الكافر بالله المنكر للبعث ، قال لوالديه وقد دعواه إلى الإيمان بالبعث : إنى أتضجر منكما ، وأضيق بما تُلقيان على مسامعى من سقط القول وسخف الكلام ، أتعداننى وتخبراننى أن أخرج حيا من قبرى ، وأبعث بعد موتى ؛ وقد مضت القرون والأزمان ولم يبعث أحد من قبره يخبرنا بذلك ؟ وكأن هذا العاق قد تمثل بقول القائل :

ما جاءنا أحد يُخبرُ أنّه فى جنّةٍ لَمَّا مضى أو نارِ

ولكن شفقة الوالدين وفرط حنانهما عليه دفعهما إلى الالتجاء إلى الله والاستغاثة به رجاء أن يغيثه بالتوفيق حتى يرجع عما هو فيه من الضلال والكفر وإنكار البعث ؛ وحملهما ذلك أيضاً على أن يحضانه على الإيمان بالله ويحذرانه مغبة ماهو مقيم عليه ، فيقولان له : (وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ) أى : هلاكاً لك إن أصررت على ما أنت عليه من الكفر ، صدق بالله وبالبعث ، فإن وعد الله حق لايتخلف ، فأولى لك أن تقبل على مادعوناك إليه من الإيمان ، ولكن هذا الشقى الفاجر – مع الحث والتحذير له من والديه – يصر ويقول : (مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) أى : ما هذا الذى تسميانه وعد الله إلا أباطيل وأكاذيب السابقين الأولين قد كتبوها وسطروها من غير أن يكون لها حقيقة .

١٨ – (أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَاسِرِينَ) :

أى : هؤلاء الكفار الذين بعدوا من الحق وعن الصراط المستقيم قد وجب عليهم القول والوعيد الذى قاله الله لإبليس ومن تبعه - عليهم اللعنة - : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ »(١) وسيكونون فى عداد أمم وجماعات من الجن والإنس كانوا على شاكلتهم كذبوا كما كذبوا وعاندوا واستكبروا وساروا على نهجهم فباءوا بالخسران والحرمان من الجنة التى خسروها بسوء معتقدهم وفحش عملهم .

(وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾)

المفـــردات :

(الْهُونِ) : الهوان والذل .

التفسـير

١٩ - (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :

أى : ولكل فريق من الأبرار الأتقياء ، والعاقين الأشقياء لكل منهما منازل ينزلون فيها فى أخراهم ، فأهل الجنة لهم درجات ونعيم يتقلبون فيه ، فى سعادة غامرة ، وقلوب بالرضا عامرة ، ونفوس مطمئنة فى جنات تختلف منازلها رفعة وعلوا ، فالذين رفعتهم أعمالهم إلى درجات أعلى لايجدون فى نفوسهم على مَنْ دونهم فى الجنة استكبارا أو استعلاء ، كما لايجد الذين منحهم الله فى جناته دون ذلك فى صدورهم غلاًّ وَلَا حقدًا على من فوقهم منزلة فى الجنة ، قال - تعالى - : « وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ »(٢) .

(١) سورة ص ، الآية : ٨٥ .   (٢) سورة الحجر ، الآية : ٤٧

أما الفريق العاق العاصى فإنه يتدنّى ويتسفل فى دركات النار يلقى سعيرها ويعذّب بأليم عقابها يتلاومون فيها ويلقى كلٌّ على صاحبه التبعة ، ويتبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتّبعوا ، وهم يومئذ بعضهم لبعض عدوٌّ .

وهذا النعيم المقيم ، وذاك العذاب الأليم يجزيهم الله - سبحانه - به جزاء وفاقًا على أعمال عملوها فى الدنيا فلاينقص الله من أجر الطائعين ، ولا يزيد فى عقاب العاصين : « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[1] .

٢٠ - (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ...) الآية :

لَمَّا ذكر - سبحانه وتعالى - أحوال بعض الأشقياء ومآلهم أردفه - جل وعلا - بذكر حال الكافرين عامة فى أخراهم ، أى : ذكِّرْ يا محمد هؤلاء المعاندين المكابرين - ذكرهم - يوم يُظهر الله للكفار نار جهنم فينظرون إليها ويعلمون أنهم ملاقوها فيقال لهم - تقريعا وتوبيخًا وتسفيهًا لهم عمَّا قدموا - : استنفدتم طيباتكم من المآكل والمشارب والملابس ، والمفارش وأنواع المتع والشهوات ، وتمتعتم بتلك اللذائذ واستعجلتموها فى الدنيا . فليس لكم حظٌّ ولا نصيبٌ منها فى الآخرة ؛ لأنكم لم تكونوا مؤمنين حتى تنالوا النعيم الأبدى الخالد ، بل اشتغلتم بشهوات الدنيا ولذائذها ، وقضيتم حياتكم فى لهو الشهوات وحمأة المعاصى ، وعميت أبصاركم عمَّا ينفعكم فى الآخرة من الإيمان بالله والعمل فى مرضاته ، فنى هذا اليوم -وهو يوم القيامة- يُجازيكم الله عذاب الذُّل وعِقَاب الهَوَان ؛ لأنكم كنتم فى الدنيا تَسْتَعْلُونَ وتَتَكَبَّرُونَ بغيرِ استحقاقٍ لكم فى ذلك الصلف والكِبْر ، وتستنكفون أن تعترفوا بأنكم خلق الله وعباده ؛ فترفعتم عن الإيمان بالله إلهًا واحدًا ، ومع هذا الكُفْر الصَّريح الدَّائم مِنْكُم كُنْتم مستمرين على الفسق خارجين عن طاعته - سبحانه - فقد جمعتم بين ذنب القلب بالكفر . وذنب الجوارح بالعصيان والفسق .

---

(١) سورة الكهف ، من الآية : ٤٩

هذا ، والترفع والزهد فى الاستمتاع بلذائذ الحياة سمة الصالحين وحلية الأولياء ، وأسوتهم فى ذلك رسولنا ﷺ فقد ورد فى صحيح مسلم وغيره أن عمر - رضى الله عنه - دخل على النبى - عليه الصلاة والسلام - فى مشربته حين هجر نساءه ، قال عمر : فالتفت فلم أر شيئًا يرد البصر إلّا أُهُبًا[1] (جلودًا معطونة قد سطع ريحها) ، فقال : يا رسول الله ؛ أنت رسول الله وخيرته ، وهذا كسرى وقيصر فى الديباج والحرير ؟ فقال :فاستوى جالسًا وقال : « أفى شك أنت يابن الخطّاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا » ، فقلت : استغفر الله لى ، فقال : « اللهم اغفر له » .

وقال حفص بن أبى العاص : كنت أتغدى عند عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الخبز والزيت ، والخبز والخلّ ، والخبز واللّبن ، والخبز والقديد ، وأقل ذلك اللحم الغريض (الطرى غير المجفف) ، وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كله ، فجىء بخبز متفلع (مشقق غليظ) فجعل يأكل ويقول : كلوا ، فجعلنا لا نأكل ، فقال : ما لكم لا تأكلون ؟ فقلنا : والله يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا ، فقال : يابن العاص ، أما ترى بأنى عالم أن لو أمرت بعناق[2] سمينة فيلقى عنها شعرها ثم تخرج مصليّة (مشويّة) كأنها كذا وكذا ، أما ترى بأنى عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله فى سقاء ثم أشنّ عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال ، إلى أن قال : والله الذى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَوْلَا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركناكم العيش ، ولكنّى سمعت الله - تعالى - يقول لأقوام : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا) .

وقال جابر : اشتهى أهلى لحمًا فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال : ما هذا يا جابر؟ فأخبرته ، فقال : أو كلما اشتهى أحدكم شيئًا جعله فى بطنه ؟ أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا)

---

(١) أهبًا : جمع إهاب ، وهو الجلد الذى لم يدبغ .

(٢) العناق : الأنثى من ولد المعز .

قال ابن العربى : وهذا عتاب منه على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جلف الخبز والماء ؛ فإن تعاطى الطيبات من الحلال تستشره له الطباع وتستمرئه العادة ، فإذا فقدتها استسهلت فى تحصيلها بالشبهات حتى تقع فى الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمّارة بالسوء ، فأخذ عمر الأمر من أوّله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله .

والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد طيِّبًا أو قَفارًا (طعام بلا أُدم) ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ؛ وقد كان النبى ﷺ يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر ، ولا يعتمد أصلًا ولا يجعله دَيْدَنًا ، ومعيشة النبى ﷺ معلومة ، وطريقة الصحابة — رضوان الله عليهم — منقولة ، فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير ، والله يهب الإخلاص ، ويعين على الخلاص برحمته .

وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر لا على تناول الطيبات المحلَّلة ، وهو حسن ؛ فإن تناول الطيب الحلال مأذون فيه ؛ فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يحل فقد أذهبه .

* (وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾)

المفــــردات :

(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ) : هو هود — عليه السلام — وكانت أخوته لعاد فى النسب لا فى الدين .

(إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بالأَحْقَافِ) : وهى جمع حقف ، وهو : ما استطال من الرمل العظيم واعوج ولم يبلغ أن يكون جبلًا ، من احقوقف الشىء : إذا اعوج .

(وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) أى : وقد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده ، والنذر : جمع نذير .

التفسير

٢١ - (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

لَمَّا كان أهل مكة مستغرقين فى الكفر معرضين عن الإيمان وماجاء به الرسول ﷺ ناسب تذكيرهم بما جرى لعاد ، وقد كانوا أكثر أموالا وأشد قوة وأعظم جاهًا منهم ؛ فسلط الله عليهم العذاب العظيم بسبب شركهم وطغيانهم ، وفى ذلك تسلية للنبى ﷺ عن تكذيب من كذبه من قومه ، وإنذارٌ لقريش لكفرهم .

والمعنى : واذكر -أيها النبىُّ- لهؤلاء المشركين قصة هود - عليه السلام -وقت إنذاره قومه عادًا عاقبة الشرك - وهى العذاب العظيم - ليعتبروا بها ، وقيل : أمره بأن يتذكر فى نفسه قصة هود - عليه السلام - ليقتدى ويهون عليه تكذيب قومه له .

وكان قومه بالأحقاف وهى مساكنهم ، وكانت رمالاً عظيمة مشرفة على البحر بأرض يقال لها : الشِّحْر ، والشِّحْر قريب من عدن ، يقال : شِحْر عُمَان ، وهو ساحل البحر بين عُمَان وعدن ، وقال ابن إسحاق : مساكنهم من عمان إلى حضرموت ، أى : فى الجنوب الشرقى من جزيرة العرب .

وبعض المنقبين فى الزمن القريب يرى أن مساكنهم شرق العقبة ، معتمدين على كتابات خطية عثروا عليها فى خرائب معبد كشفوا عنه فى جبل إرَم ، ووجدوا فى جانب الجبل آثارا جاهلية قديمة ، فرجحوا أن هذا المكان هو موضع إرم التى ذكرها القرآن الكريم[1] (وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) أى : وقد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده ، أى : واذكر زمان إنذار هود قومه بما أنذر به الرسل قبله وبعده ، وهو

(١) المنتخب عند تفسير الآية .

أن لا تعبدوا إلا الله ، إيذاناً باشتراك المنذرين جميعاً فى معنى العبارة المحكية ، وتنبيهاً على أنه إنذار ثابت قديماً وحديثاً ، اتفقت عليه الرسل فى دعوتهم إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له . (إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وهو يوم القيامة إن عبدتم غير الله ، والجملة تعليل للنهى ، أى : لا تعبدوا إلا الله ؛ لأنى أخاف عليكم أشد العذاب وأقساه .

(قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾)

المفــردات :

(لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا) أى : لتصرفنا وتمنعنا عن عبادة آلهتنا .

(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا) من العذاب ، وهذا يدل على أن الوعد قد يوضع موضع الوعيد ، فكما يقال : وعده خيرا وبالخير ، يقال : وعده شرا وبالشر .

(قَوْماً تَجْهَلُونَ) أى : تتَّصفون بالجهل وعدم الإدراك فى سؤالكم استعجال العذاب ممن بعث إليكم منذرا .

(فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ) : جمع واد ، وهو كل منفرج بين جبال أو آكام يكون منفذا للسيل.

(رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى : بل الذى زعمتموه سحاباً ممطراً هو ريح متكاثفة فيها عذاب مؤلم لكم .

(فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ) أى : فاجأتهم الريح فدمرتهم ولم يبق شىء يرى إلا مساكنهم .

(كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ) أى : مثل هذه العقوبة نعاقب من أجرم مثل جرمهم .

التفسير

٢٢ ـ (قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ) :
أى : قال قوم هود إنكارا عليه : أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا ـ كما قال الضحاك ـ من الأفك بمعنى الصرف ، وقد وعدتنا بإنزال العذاب بنا عقاباً لنا على الشرك فى الدنيا فعجل بهذا العذاب إن كنت صادقاً فى وعدك بنزوله بنا .

٢٣ ـ (قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) :
أى : فأجابهم ـ عليه السلام ـ قائلا : إنما العلم بوقت نزول العذاب ، أو بجميع الأشياء التى من جملتها ذلك عند الله وحده ، فيعلم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك بكم ويأتيكم به فى وقته ، وأما أنا فلا علم لى بوقت نزوله ولا مدخل لى فى اقتراح إتيانه وحلوله . (وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ) من مقاصد الرسالة التى من جملتها بيان نزول العذاب إن لم تنتهوا عن الشرك ، من غير وقوف على وقت نزوله (وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) أى : شأنكم الجهل حيث تقترحون علىَّ ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب وتعيين وقته ، ولو كنتم على شىء من العلم لأدركتم أن الرسل بعثوا منذرين لا مقترحين ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه .

٢٤ ، ٢٥ - (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) :

أى : فأتاهم العذاب الذى استعجلوه ، فلما رأوه سحاباً ممتداً فى عرض الأفق متوجها نحو أوديتهم حسبوه سحاباً ممطراً ، وكان المطر قد أبطأ عليهم فاستبشروا به ، حيث (قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا) فرحاً به ، ولا سيما أنه قدجاء من واد جرت العادة أن ما جاء منه يكون غيثاً - قاله ابن عباس وغيره - ولكن ما توقعوه تبين لهم أنه سراب خادع حين قال لهم هود - عليه السلام : (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى : هو العذاب الذى استعجلتموه لما قلتم : (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) أتاكم متمثلاً فى ريح كثيفة عاصفة تحمل الفساطيط[1] وترفع الظعينة[2] بين السماء والأرض ثم تضرب بها الصخور ، وقد اعتزل هود ومن معه فى حظيرة - كما روى عن ابن عباس - ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين به الجلود وتلذه الأنفس ، وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة .

ونقل القرطبى عن ابن عباس أيضاً أنه قال : أول ما رأوا العارض قاموا فمدوا أيديهم وأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشى تطير بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش ، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، ولهم أنين ، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال ، واحتملتهم فرمتهم فى البحر ، فهى التى قال الله فيها : (تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا) ا هـ . أى : تهلك هذه الريح كل شىء مرت عليه من نفوسهم وأموالهم بإذن ربها وتقديره ، وفى ذكر الأمر والرب والإضافة إلى ضمير الريح من الدلالة على عظمة شأنه - عز وجل - ما لا يخفى ، وكان الرسول ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير

(١) الفساطيط : جمع فسطاط ، وهو السرادق .

(٢) تطلق الظعينة على الجمل يظعن عليه ، وعلى الهودج فيه امرأة أو لا .

ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » فإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سُرِّى عنه ، فسألته السيدة عائشة فقال : لعله يا عائشة كما قال قوم هود : (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا) أخرج الحديث مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عن عائشة .

(فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ) أى : فجاءتهم الريح فدمرتهم عن آخرهم فأصبحوا بحيث لا يرى إلا مساكنهم وقد بقى منها ما يدل عليها ، وقرأ الجمهور « ترى » بالتاء ونصب مساكنهم خطاباً لكل أحد يتأتى منه الرؤية تنبيها على أن حالهم بحيث لو حضر كل أحد بلادهم لا يرى فيها إلا مساكنهم ، أو الخطاب لسيد المخاطبين ﷺ .

(كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) أى : مثل تلك العقوبة التى نزلت بعاد ، يجزى الله كل من كذب رسله .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾)

المفـــردات :

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ) أى : جعلنا لهم سلطاناً وقدرة على التصرف فى الذى ما مكناكم فيه ولا سخرناه لكم .

(فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ) أى : لم تنفعهم تلك الحواس أى نفع فى دفع العذاب عنهم ؛ حيث أهملوا الانتفاع بها فانغمسوا فى الضلال .

(إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ) أى : يكفرون بها .

(وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أى : أحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه استهزاءً به .

(وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ) أى : كررنا الحجج والدلالات لكى يرجعوا عن كفرهم .

(قُرْبَاناً آلِهَةً) القربان : كل ما يتقرب به إلى الله - تعالى - من طاعة ونسيكة - قاله الكسائى - وجمعه : قرابين ، أى : اتخذوا الآلهة متقرَّباً بها إلى الله - تعالى - .

(بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ) أى : غابوا عن نصرتهم .

(وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) أى : وضلال آلهتهم عنهم وامتناع نصرتهم إياهم هو دليل كذبهم وافترائهم فى قولهم : إنها تقربهم إلى الله زلفى .

التفسير

٢٦ - (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

خطاب لأهل مكة على سبيل التهديد ، والمعنى : ولقد مكنا الأُمم السابقة فى الدنيا وأعطيناهم من القوة والسعة وطول الأعمار وسائر التصرفات ما لم نعطكم مثله يا أهل مكة ، وجعلنا لهم سمعاً وأبصارا وأفئدة ليستعملوها فيما جعلها الله له فيعرفوا بكل منها مختلف النعم التى يستدلون بها على شئون الخالق المنعم - عز وجل - فى تفضله عليهم فيؤمنون به ويداومون على شكره . (فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ) أى : أنها لم تغن عنهم أى شىء من الإغناء ، ولم تُذهب عنهم شيئاً من عذاب الله ، حيث

لم يستعملوا سمعهم فى استماع الوحى ومواعظ الرسل ، وأبصارهم فى اجتلاء الآيات الكونية الناطقة بقدرة الله ووحدانيته ، وقلوبهم فى التأمل طلباً لمعرفة الله .

وإفراد السمع فى النظم الكريم وجَمْعُ غيره لاتحاد المدرك به وهو الأصوات ، وتعدد مدركات غيره ، وقد تأتى الإضافة إلى جمع مرادا بها الجمع ، فكأنه قيل : أسماعهم .

(إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ) : تعليل لما سبق من عدم إغناء سمعهم عنهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ، أى : لأنهم كانوا يكفرون بالله وينكرون آياته المنزلة على رسله إعراضاً عنهم ، وتكذيباً لهم .

(وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أى : ونزل بهم العذاب الذى أحاط بكل جهاتهم ، وكانوا يستعجلونه بطريق السخرية والاستهزاء فلم يبق منهم ولم يذر أحدا .

٢٧ - (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) : تهديد آخر لكفار مكة وتخويف لهم بذكر سوء عاقبة أمثالهم السابقين .

والمعنى : ولقد أهلكنا القرى المجاورة لكم والمحيطة بكم كقرى عاد وحِجر ثمود ومساكن سبأ وقرى قوم لوط ، وكانوا يمرون بها فى أسفارهم وكانت أخبارها متواترة عندهم ، وكررنا الحجج وأنواع البينات والعظات ووضحناها لأهل تلك القرى (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أى : لكى يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصى إلى الطاعة والإيمان .

٢٨ - (فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونَ اللهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) :

الآية تهكم بالمشركين ، والمعنى : فهلاً نصرهم الذين اتخذوهم آلهة يتقربون بها إلى الله تعالى لتشفع لهم ، حيث كانوا يقولون : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَىَ اللهِ زُلْفَى » وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فهلاً منعوهم من الهلاك الواقع بهم ؟ ! (بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ) أى : غابوا عنهم ولم ينصروهم ؛ لأنهم آثمون بعبادتهم فكيف ينصرونهم أو يشفعون لهم ؟ هذا إذا

كانت معبوداتهم عاقلة كالبشر أو الملائكة ، فإن كانت غير عاقلة كالأصنام والكواكب كان المعنى : غاب عنهم نفعهم لعدم فائدتهم ، فهم جمادات فكيف ينصرونهم ؟

وقيل المعنى : ترك المشركون الأوثان وتبرأوا منها ، أو هلكت معبوداتهم فاستحال نصرها لهم (وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) أى : وضلال آلهتهم عنهم فى الدنيا ويوم القيامة هو أثر كذبهم فى قولهم : إنها تقربنا إلى الله ، وإنها شفعاؤنا عنده .

(وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾
قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ
أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم
مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾)

المفـــردات :

(وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ) أى : وجهنا إليك نفرا من الجن ، والنفر : من ثلاثة إلى عشرة ، وقيل : إلى سبعة من الرجال .

(فَلَمَّا قُضِىَ) أى : فرغ من تلاوته .

(وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) : رجعوا إليهم مخوفين من عذاب الله .

(كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ) : وهو القرآن الكريم .

(مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) أى : لما قبله من التوراة ؛ لأنهم كانوا مؤمنين بموسى .

(فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الْأَرْضِ) أى : لا يفوت الله طلباً ، ولا يعجزه هرباً ، وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل فى أعماقها .

(أُوْلَـٰئِكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أى : أولئك الذين لا يستجيبون لله فى خسران واضح بيّن بحيث لا يخفى على أحد .

التفسير

٢٩ - (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) :

فى القصة المذكورة توبيخ لمشركى قريش حيث إن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به ، وعلموا أنه من عند الله ، وهؤلاء معرضون عنه مصرون على الكفر به ، مع أنهم من أهل اللسان الذى نزل به ، ومن جنس الرسول الذى جاء به ، والجن ليسوا كذلك .

والمعنى : واذكر - أيها النبى - لقومك الوقت الذى صرفنا فيه ووجهنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن منك وهم - كما قال ابن عباس - سبعة نفر من جن نصيبين ، وقال زر بن حبيش : كانوا تسعة أحدهم زوبعة ، وقيل : كانوا سبعة ، ثلاثة من أهل نجران وأربعة من أهل نصيبين ، كذلك قيل - والله أعلم - فلما بلغوا تهامة اندفعوا إلى بطن نخل ، فوافوا رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى جوف الليل ، وقيل : يؤم أصحابه فى صلاة الفجر ، فلما حضروا تلاوته قال بعضهم لبعض : أنصتوا تمكيناً لنا من سماعه وتأدباً معه ، وحينما قُضِى القرآن وفُرِغ من تلاوته (وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) أى : انصرفوا قاصدين مَنْ وراءهم من قومهم منذرين لهم عاقبة مخالفة القرآن ، ومخوفين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا .

وروى عن سعيد بن جبير ما يشير إلى أن رسول الله ﷺ ماقرأ على الجن ولا رآهم وإنما كان يتلو فى صلاته فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر بهم فأنبأه الله تعالى باستماعهم حيث أوحى إليه قوله تعالى: (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ . .) وقيل: بل أمره الله ـ تعالى ـ أن ينذر الجن ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف إليه نفرا منهم ليستمعوا منه وينذروا قومهم . فقد روى أنه ﷺ قال : « إنى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعنى ؟ قالها ثلاثاً ، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة فى شعب ، خطَّ لى خطا فقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم افتتح القرآن ، وسمعت لغطا شديداً حتى خفت على رسول الله ﷺ إلى أن قال : ثم انقطعوا كقطع السحاب ، فقال رسول الله : هل رأيت شيئاً ؟ قلت : نعم ، رجالاً سودا ، مستشعرى ثياب بيض . فقال : أولئك جن نصيبين » وكانت هذه القصة قبل الهجرة بثلاث سنين على ما صح عن ابن عباس . وهذه الرواية لا تعارض الرواية التى تقول : إنهم صادفوا وقت قراءته ﷺ فإن ذلك كان فى واقعة أخرى ، بل قيل: إن وفادة الجن كانت ست مرات ، ولتعدد الوقائع اختلفت الروايات فى عدد الجن الذين حضروا وفى المكان والزمان لاستماعهم القرآن .

ويستفاد من الآية : أن فى الجن نذرًا وليس فيهم رسلاً كقوله ـ تعالى ـ : « وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ »[1] وأما قوله ـ تعالى ـ : « يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ »[2] فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما ، وتعلق قوم بظاهر النص فقالوا : إن الجن كانت لهم رسل منهم ـ انظر تفسير الآية فى الكشاف .

٣٠ ـ (قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

أى : قال الجن لقومهم حينما رجعوا إليهم : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً عظيم القدر رفيع الشأن أنزل على رسول من بعد موسى ، وقد ذكروا بعديته لموسى دون بعديته لعيسى ؛ لأن عيسى كان مأمورًا بالعمل بمعظم ما فى التوراة أو بكله ، حيث أنزل عليه

(١) سورة يوسف من الآية ١٠٩ . (٢) سورة الأنعام من الآية ١٣٠ .

الإنجيل مشتملًا على كثير من المواعظ ، وقليل من التحليل والتحريم . فهو فى الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، أو لأن الجن كانت يهوداً – كما قال عطاء – (مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) أى :أن القرآن مصدق لما تقدمه ، وأرادوا به التوراة أو جميع الكتب الإلٰهية السابقة . (يَهْدِىٓ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ) أى : أنه يرشد إلى العقائد الصحيحة وإلى طريق مستقيم من الأحكام الفرعية ، أو مايعمها وغيرها من الأركان والقواعد على أنه من ذكر العام بعد الخاص .

٣١- (يَا قَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللهِ وَآمِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) :

يحتمل أنهم أرادوا بداعى الله ما سمعوه من القرآن الذى طلبوا الاستجابة له والإيمان به ، ووصفوه بالهداية إلى الحق والصراط المستقيم لتلازمهما ،

ويحتمل أنهم أرادوا به محمدًا ﷺ حيث دعاهم إلى الله وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين -الإنس والجن - وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم وهى سورة الرحمن فطلبوا الاستجابة له والإيمان به ، وهذا يدل على أنه كان مبعوثاً إلى الجن والإنس ،قال مقاتل : لم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ ويؤيد هذا مافى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعطيتُ خَمْسا لم يُعطهنَّ أحدٌ قَبْلِى ، كانَ كلُّ نَبِىٍّ يُبعثُ إلى قومِهِ خاصةً ، وبُعثتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ إلى آخر الحديث » قال مجاهد : الأحمر والأسود : الجن والإنس ؛ وفى رواية من حديث أبى هريرة : « بعثت إلى الخلق كافة ،وختم بى النبيون » .

(يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) أى : يغفر لكم بعض ذنوبكم وهو الذنوب السالفة ،وقيد الخطاب معهم بمايدل على التبعيض دفعاً لتوهمهم أنهم إذا أجابوا داعى الله -تعالى -وآمنوا به يغفر لهم ماتقدم من ذنوبهم وما تأخر ، وقال أبو السعود : أى : بعض ذنوبكم وهو ماكان فى خالص حق الله تعالى ؛ فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان .

(وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) مُعَدٍّ للكفرة ،ويدل هذا على أن الجن مكلفون . واختلف فى أن لهم أجرًا غير غفران الذنوبِ والإجارةِ من العذاب الأليم أَوْ لا . والأظهر أنهم فى حكم بنى آدم ثواباً وعقاباً ، قال ابن عباس : لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون فى الجنة ويزدحمون على أبوابها . وقال آخرون : إنهم كما يعاقبون فى الإساءة يجازون فى الإحسان مثل الإنس ، وإليه ذهب مالك والشافعى وابن أبى ليلى وغيرهم . وقال الضحاك : يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون لقوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ »[1] ولعل الاقتصار على ما ذكر من غفران الذنوب لهم والإجارة من العذاب الأليم ،لأن المقام مقام إنذار . فلذا لم يذكر فيه شىء من الثواب ، وقيل : لاثواب لمطيعهم إلا النجاة من النار قال الحسن : ليس لمؤمنى الجن ثواب غير نجاتهم من النار ، فيقال لهم : كونوا تراباً فيكونون تراباً . وبه قال أبوحنيفة . وعلق القشيرى على هذا الخلاف فقال : والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشىء والعلم عند الله ، على أن ماذكر من الجزاء على الإيمان بتكفير الذنوب والإجارة من العذاب يستلزم دخول الجنة ؛ لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار ، فمن أجير من النار دخل الجنة لامحالة .

٣٢ - (وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

إيجاب للإجابة بطريق الترهيب بعد إيجابها بطريق الترغيب. أى : ومن لايؤمن بالله استجابة لداعيه ، فإنه لايفوت الله طلباً ، ولا يعجزه هرباً . لبالغ قدرته وعظيم سلطانه . وقد نجح هذا الأسلوب فى كثير منهم ، فجاءوا إلى رسول الله يبتغون سبيل الهدى والرشاد . وتقييد الإعجاز بكونه فى الأرض لتوسيع الدائرة. بمعنى أنه ليس بمعجز - له تعالى - بالهرب وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل فى أعماقها . (وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ) إبراز لاستحالة نجاته بمعاونة أنصار يمنعونه من عذاب الله بعد بيان استحالة نجاته بنفسه ، وعاد الضمير مفردًا فى قوله - تعالى - : (وَلَيْسَ لَهُ) باعتبار لفظ (مَنْ) والمراد به الجمع ،ويؤيد ذلك قراءة ابن عامر : (ولَيْسَ لَهُمْ) بضمير الجمع (أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أى : أُولئك الموصوفون

---

(١) سورة الرحمن الآية ٧٤ .

بعدم إجابة داعى الله فى ضلال واضح بيّن لا يخفى على أحد كونه ضلالًا ؛ لبعده عن الحق ومجافاته له ، وجمع (أولئك) باعتبار معنى (مَنْ) .

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ
هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ
وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا
إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾)

المفــردات :

(أَوَلَمْ يَرَوْا) أى : أو لم يعلموا ؛ لأن المراد بالرؤية هنا العلم .

(وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ) أى : لم يتعب به أصلاً .

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ) أى : يوقفون عليها ويمررون بها .

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ) أى : كأنهم حين يرونها لم يمكثوا فى الدنيا إلا وقتاً يسيراً من نهار لشدة العذاب وطول مدته .

(بَلَاغٌ) أى : أن ما وعظوا به كفاية فى الموعظة ، أو تبليغ من الرسول .

(فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) أى : الخارجون عن طاعة الله ، أو عن الاتعاظ بما وعظوا به .

التفسير

٣٣ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

الهمزة فى (أَوَلَمْ يَرَوْا) للإنكار ، والمعنى : أغفل هؤلاء الكفار المنكرون للبعث ولم يعلموا علماً جازماً أن الله العظيم أبدع خلق السموات والأرض ابتداء من غير مثال يحتذيه ، ولم يلحقه بذلك تعب أصلاً ، أو لم يعجز عنه - أو لم يرده - (بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ) أى : أنه - سبحانه - وقد أبدع خلق السموات والأرض فى الابتداء قادر قدرة بالغة على أن يحيي الموتى بعد الفناء ، ويعيدهم بعد تفرق الأشلاء .

ودخلت الباء هنا فى خبر أنَّ تأكيدًا للمعنى لاشتمال النفى فى أول الآية على أن وما فى حيزها كأنه قيل : أوليس الله بقادر على أن يحيي الموتى ؟ ولذلك أجيب عنه بقوله تعالى : (بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تقريرًا للقدرة على وجه عام ليكون كالبرهان على المقصود ، فكأنه قيل : إحياء الموتى شىء ، وكل شىء مقدور له - تعالى - فينتج عنه أن إحياء الموتى مقدور له ، ويلزمه أنه قادر على إحياء الموتى : تفسير الآلوسى .

٣٤ - (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) :

أى : وذكِّر الكفار يوم يوقفون على النار فيقال لهم تقريعاً : (أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ) إشارة إلى ما يشاهدونه من حيث هو من غير لفظ يدل عليه إذ هو اللائق بتهويله وتفخيمه ، أو إشارة إلى العذاب الذى كانوا يكذبون به بدليل التصريح به بعد فى قوله : (فَذُوقُوا الْعَذَابَ) وفى ذلك توبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده ، وكان جوابهم مؤكدًا بالقسم حيث قالوا : (بَلَىٰ وَرَبِّنَا) كأنهم يطمعون فى الخلاص من العذاب بالاعتراف بحقية ذلك ، وأنى لهم ذلك ؟ ! (قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) أى : فيقول المقرِّر : فذوقوا العذاب بسبب استمراركم على الكفر فى الدنيا .

ومعنى أمرهم بذوق العذاب : الاستهانة بهم والتهكم والتوبيخ لهم . وذوق العذاب تمثيل لإدراك آثاره الأليمة والإحساس بها إحساساً لاشك فيه .

٣٥ - (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَايُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) :

أى : إذا كانت عاقبة أمر الكفرة إنزال العذاب بهم بسبب كفرهم فاصبر- أيها النبى - على الدعوة إلى الحق ومكابدة الشدائد بما يصيبك من أذى قومك الذى أنزلوه بك وبمن اتبعك . اصبر كما صبر أُولو العزم والثبات من الرسل المجتهدين فى تبليغ الوحى فلم يصرفهم عنه صارف ، ولم يعطفهم عنه عاطف ، وإنك من جملتهم بل من عليتهم . فكل الرسل كانوا أُولى عزم كما قال ابن عباس ، ولفظ (من) على هذا للتبيين . وقيل : هى للتبعيض ، والمراد من أُولى العزم : أَصحاب الشرائع الذين اجتهدوا فى تأْسيسها وتقريرها ، وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاغين فيها ، وقد اختلفوا فى تعيينهم على أقوال : أَشهرها أَنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأَنبياء محمد ﷺ فهم خمسة - قاله مجاهد - وقال مقاتل : هم ستة: نوح صبر على أذى قومه مدة طويلة ، وإبراهيم صبر على النار ، وإسحاق[١] صبر على الذبح ويعقوب صبر على فقد الولد ، وذهاب البصر ، ويوسف صبر على البئر والسجن ، وأيوب صبر على الضر ، وهناك أقوال أُخرى كثيرة ذكرها القرطبي وغيره فمن أَرادها فليرجع إليها . (وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ) أَى : لاتدعُ على كفار مكة بتعجيل العذاب لهم فإنه على شرف النزول بهم يوم القيامة وهو قريب لاشك فيه « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَنَرَاهُ قَرِيباً »[٢] .

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَايُوعَدُونَ) من العذاب الذى أمروا بذوقه لم يمكثوا فى الدنيا حتى جاءهم هذا العذاب ، أو فى قبورهم حتى بعثوا للحساب - كما قال النقاش لم يمكثوا - إلا وقتاً يسيراً

(١) الأصح أن الذبيح إسماعيل - عليه السلام - .
(٢) المعارج ، الآيتان : ٦ ، ٧

يقدر بساعة من نهار فى جنب يوم القيامة لما يشاهدون من شدة العذاب وطول مدته حتى أنساهم هولُ ذلك طول مكثهم فى الدنيا أو فى قبورهم ، وهذا الذى وعظتم به (بلَاغٌ) أى : كاف فى الموعظة ، أو هذا القرآن بلاغ للناس - قاله الحسن - بدليل (إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ) (فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) أى : لا يكون الهلاك والدمار إلا للكافرين الخارجين عن الاتعاظ بأمر الله ، أو عن الطاعة ، وفى الآية من الوعيد والإنذار ما فيها .

« سورة محمد »

هذه السورة مدنية وعدد آياتها ثمان وثلاثون ، ولها اسمان سميت بهما ، أحدهما : سورة محمد ؛ لقوله - تعالى - فى أول السورة : (وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ) وثانيهما : القتال لقوله - تعالى - فيها : (فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ) من الآية رقم ٢٠

ومناسبتها للسورة التى قبلها أن حديثها عن الكفار الذى بدئت به متصل بما ختمت به سابقتها التى ذكرت حالهم يوم يعرضون على النار ، بسبب كفرهم وإيذاء الرسول وإنكار البعث ، وقررت مصيرهم بقوله - تعالى - : (فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) حتى قال ابن كثير : لا يخفى قوة ارتباط أولها بآخر السورة قبلها واتصاله وتلاحمه بحيث لو سقطت من البين البسملة لكانا كلاماً واحداً لا تنافر فيه ، كالآية الواحدة آخذاً بعضها بعنق بعض .

اهم اهـداف السورة :

١ - بينت فى بدايتها أن الله أبطل أعمال الكافرين لإعراضهم عن الحق واتباع الباطل، والوقوف فى وجه الدعوة ليصدوا الناس عن دين الله ، وأنه - سبحانه - كفّر عن المؤمنين سيئاتهم ؛ لأنهم نصروا الحق وسلكوا طريقه واتبعوا ما أنزل على محمد ﷺ .

٢ - بينت - بإطناب - وجوب الدفاع عن الحق وما يتطلبه ذلك عند لقاء الكفار فى بدء المعركة ونهايتها ، وذكرت جزاء من قتل فى سبيل الله (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ) الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦

٣ - وعدت المؤمنين المدافعين عن دين الله بالتأييد والنصر (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ) ... الآية ، وأوضحت أن للكافرين الشقاء والخسار (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) ؛ لأَنَّهُمْ كرهوا ما أنزل الله فأبطل أعمالهم .

٤ - حذرت كفار مكة سوء المصير فضربت لهم الأمثال بالطغاة المتجبرين من الأمم السابقة ، وبينت أن الله دمر عليهم بسبب إجرامهم وطغيانهم (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) الآية ، ثم ذكرت جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وعاقبة الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ، وأشارت إلى أن سنة الله إهلاك القرى الظالمة التى هى أشد من قريتك التى أخرجتك (فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ) .

٥ - ذكرت أنهار الجنة التى ينعم بها المؤمنون ، وشراب الكافرين الذى يقطع أمعاءهم .

٦ - تحدثت بإسهاب عن المنافقين ، وعما جبلوا عليه من الإنكار لما يسمعون من الرسول حيث كانوا يقولون لأولى العلم : ماذا قال آنفاً ؟ تمادياً فى الإعراض عن الحق وعلى جهة الاستهزاء ،واستمرت آيات السورة تعدد مساوئهم مع تحذير المؤمنين أن يكونوا بينهم حتى لايستمعوا لتثبيطهم ، وهددتهم بهتك أستارهم بإظهار الرسول على أحقادهم التى يخفونها حيث كانوا يقولون مالا يفعلون . (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ) .

٧ - ثم ختمت السورة مؤكدة أن الذين صدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما وضح الحق وتبين الهدى لن يضروا الله شيئاً ، وسيحبط أعمالهم ، وأنهم إذا ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ، وذمت البخلاء فى الإنفاق وبينت استغناء الحق ، وفقر الخلق فى قوله : (وَاللهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ ..) الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ
وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢)
ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣))

المفـــردات :

(وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ) أى : أعرضوا عن الإسلام وامتنعوا عن الدخول فيه ، من : صد صُدودًا ، أو منعوا الناس عن الدخول فيه ، من : صده صدًّا .

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى : أبطل كيدهم ومكرهم وتدبيرهم .

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) أى : أزالها ومحاها بالإيمان والعمل الصالح .

(وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) أى : حالهم فى الدين والدنيا ، والبال كالمصدر ولايعرف منه فعل .

(اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ) أى : الشرك أو الشيطان .

(اتَّبَعُوا الْحَقَّ) : التوحيد والقرآن .

التفسـير

١ - (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) :

قال ابن عباس : نزلت فى المطعمين يوم بدر وهم اثنا عشر رجلاً من أهل الشرك منهم أبو جهل ، والحارث بن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأُبَيٌّ وأُمية ابنا خلف كانوا يمنعون

الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر ، وقد أنفقوا فى سبيل ذلك نفقة كثيرة ، وقيل : المراد بهم أهل الكتاب الذين كفروا وصدوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل فى الإسلام ، وقيل : هم أهل مكة الذين كفروا بتوحيد الله وصدوا عن الإسلام من أراد الدخول فيه ، والحق أن الآية عامة لكل من كفر وأعرض عن الإسلام ، أو كفر ومنع الناس من الدخول فيه(١) ويدخل فى العموم كل ما نقل من أقوال دخولا أوليا ، هؤلاء أبطل الله أعمالهم وجعلها ضائعة ليس لها من يثيب عليها ، ولا أثر لها أصلاً ، بمعنى أنه حكم ببطلانها وضياعها لا بمعنى أنه أبطلها وأحبطها بعد أن لم تكن كذلك ، وبطلانها بإبطال كيدهم ومكرهم بالنبى ﷺ حيث جعل الدائرة تدور عليهم ، أو بإبطال ما عملوه فى كفرهم مما كانوا يسمونه مكارم من صلة الأرحام ، وقرى الأضياف ، وحفظ الجوار وعمارة المسجد الحرام ونحوها من كل مكرمة لهم وفخر .

٢ - (وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) :

قال ابن عباس فيما صح عنه : هم أهل المدينة الأنصار ، وقيل : هم ناس من قريش ، وقيل : من أهل الكتاب ، والحق أن الآية عامة ويدخل فيها من ذكر دخولا أوليا ، وتخصيص الإيمان بما نزل على محمد مع دخوله فيما قبله تنبيه على سمو مكانته بين الكتب السابقة التى جاء بها الرسل قبله .

والمعنى : والذين آمنت قلوبهم ، وانقادت جوارحهم فعملوا الأعمال الصالحة ، وآمنوا بما أنزله الله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الكريم ، أولئك المؤمنون الذين وصفوا بما ذكر (كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) التى حدثت منهم قبل الإيمان فأزالها ولم يؤاخذهم بها . (وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) أى : حالهم وشأنهم بالتوفيق فى أمور الدين ، والتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصر والتأييد على عدوهم حتى دانت لهم مشارق الأرض ومغاربها .

---

(١) لأن (صد) تستعمل لازمة بمعنى أعرض ، والمصدر : الصدود ، ومتعدية بمعنى منع ، والمصدر : الصد .

٣ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَاطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ) :

بدئت الآية بالإشارة إلى مامر من إضلال أعمال الكافرين ، وتكفير سيئات المؤمنين وإصلاح بالهم .

والمعنى : أن إضلال أعمال الذين كفروا بسبب أنهم اتبعوا الباطل وهو الذى لا أصل له أو اتبعوا الباطل وهو الشيطان - قاله مجاهد - ففعلوا ما فعلوا من الكفر والصد عن سبيل الله ، وأن رعاية المؤمنين بسبب أنهم اتبعوا الحق الذى لا محيد عنه كائن من ربهم ، فآمنوا به وعملوا الأعمال الصالحة (كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ) أى : مثل هذا البيان الواضح يبين الله للناس أحوال الفريقين المؤمنين والكافرين وأوصافهما الجارية فى الغرابة مجرى الأمثال ، وهى اتباع المؤمنين الحق وفوزهم وفلاحهم ، واتباع الكافرين الباطل وخيبتهم وخسرانهم .

ويجوز أن يراد بضرب الأمثال التمثيل والتشبيه بأن جعل - سبحانه - اتباع الباطل مثلًا لعمل الكفار ، والإضلال مثلًا لخيبتهم ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين ، وتكفير السيئات مثلا لفوزهم .

(فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾)

المفـــردات :

(فَشُدُّوا الْوَثَاقَ) أى : فأحكموا قَيْدَ مَنْ أسرتموهم بعد إثخانهم بكثرة القتل وإضعافهم بالجراح . والوثاق – بالفتح والكسر – : اسم لما يوثق به كالقيد والحبل ونحوهما ، والجمع وُثُق .

(فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً) المن : إطلاق الأسير بغير عوض ، والفداءُ : إطلاقه بعوض .

(حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) أى : آلاتها وأثقالها التى لا تقوم إلَّا بها كالسلاح ، والكُراع [1] وغير ذلك ، وإسناد الوضع للحرب وهو لأهلها على سبيل المجاز .

(لَانتَصَرَ مِنْهُمْ) أى : لانتقم منهم فأهلكهم بغير الحرب كالزلزلة .

(وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ) أى : أمركم بالحرب ليختبر بعضكم ببعض فيمتحن المؤمنين بالكافرين تمحيصًا للمؤمنين ، ويمتحن الكافرين بالمؤمنين تمحيقًا لهؤلاء الكافرين .

---

(١) الكراع – بضم الكاف – : اسم يجمع الخيل : مختار الصحاح .

(فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى : فلن يضيعها وإنما يجازيهم بها أحسن الجزاء .

(عَرَّفَهَا لَهُمْ) أى : يهدى أهل الجنة إلى مساكنهم فلا يخطئونها ، وذلك إلهامٌ منه تعالى.

التفسير

٤ - (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) :

بدئت الآية بالفاء لترتيب ما فى حيزها من الأمر بجهاد الكافرين على ما قبلها من ضلال أعمال الكفرة وخيبتهم ، وصلاح أحوال المؤمنين وفوزهم ، مما يقتضى أن يترتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام .

والمراد بالذين كفروا - كما قال ابن عباس - : المشركون عبدة الأوثان ، وقيل : كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابى إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة ، ذكره الماوردى ، واختاره ابن العربى وقال : وهو الصحيح لعموم الآية فيه .

وهؤلاء الكافرون أنتم مأمورون بضرب رقابهم فى الحرب ، وهو كناية عن قتلهم فى أى موضع ، وعبر به عنه لتصوير القتل بأبشع صورة وهو حز العنق ، وفصل العضو الذى هو رأس البدن وأشرف أعضائه ، ومجمع حواسه ، وفى بقاء الجسد ملقى بدون رأسه شناعة ما بعدها شناعة . (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ) بأن أكثرتم فيهم القتل ، وأخذتم من لم يقتل منهم أسرى بعد أن أوهنتموهم بالجراح . (فَشُدُّوا الْوَثَاقَ) أى : فأحكموا قيدهم حتى لا يفلتوا منكم ، وعندما يتم التحفظ عليهم تكون عاقبة أمرهم التخيير فيهم . (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً) وظاهر الآية على ما ذكره السيوطى فى أحكام القرآن العظيم - : امتناع القتل بعد الأسر ، وبه قال الحسن ، وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أنه قال : أتى الحجاج بأسارى فدفع إلى ابن عمر - رضى الله تعالى عنهما - رجلا يقتله فقال ابن عمر : ليس بهذا أمرنا ، إنما قال

الله - تعالى - : (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً) ذكر ذلك الآلوسى .

ويقول القرطبى : وليس فى تفسير المن والفداء منع من غيره مع الأسرى . فقد بين الله فى الزنى حكم الجلد ، وبين الرسول حكم الرجم، ولهذا اختلف العلماء فى حكم الأسارى ، فذهب الأكثرون إلى أن الإمام بالخيار إن شاء قتلهم إن لم يسلموا ؛ لأن النبى ﷺ قتل - صبرا - عقبة بن أبى معيط وطعيمة بن عدى والنضر بن الحارث ؛لأن فى قتلهم حسماً لمادة فسادهم بالكلية ، وليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيراً بنفسه فذلك من حق الإمام ، ما لم يتوقع شراً منه ، وإن شاء الإمام استرقهم ؛لأن فيه دفع شرهم مع وفور المصلحة لأهل الإسلام ، وإن شاء تركهم أهلَ ذمة كما فعل ذلك عمر مع أهل السواد إلَّا أسارى مشركى العرب والمرتدين فإنه لا تقبل منهم جزية ولا يجوز استرقاقهم . والحكم فيهم إما الإسلام أو السيف، وعن سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلَّا بعد الإثخان والقتل بالسيف لقوله - تعالى - : « مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ »[1] فإذا وقع بعد ذلك أسر فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل وغيره . وتفصيل هذه الأحكام تكفل بها الفقهاء . (حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) أى : آلاتها وأثقالها من السلاح وغيره مما لا تقوم الحرب إلَّا به ، وإسناد وضع الأوزار إليها - وهو لأهلها - إسناد مجازى ، والمراد من هذا الرأى أن هؤلاء الكافرين يقتلون حتى تنتهى الحرب ، فيكون بعدها إمَّا الأسر وإمَّا الفداء ، وتستمر الأحكام السابقة جارية فيهم إلى أن يظهر الإسلام على الدين كله . ولا يبقى للمشركين شوكة بهزيمتهم أو بالموادعة وإلقاء السلاح ، أو حتى يترك المشركون شركهم ومعاصيهم ويسلموا . (ذَٰلِكَ) أى : ذلك حكم الكفار ، أو : افعلوا ذلك ، وهى كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام . (وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ) بغير قتال ، بأن يهلكهم بخسف ونحوه كرجفة وغرق وريح صرصر عاتية ، وقال ابن عباس : ولو يشاء لأهلكهم بجند من الملائكة .

---

(١) سورة الأنفال من الآية ٦٧

(وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ) أى : ولكن أمركم بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم ، فينالوا الثواب العظيم ، ويُخلَّد فى صحف الدهر ما لهم من الفضل الكبير ، وليبلو الكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم - عز وجل - ببعض انتقامه ، فيتعظ به بعض منهم ويكون سببًا لإسلامه . (وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى : والذين استشهدوا فى قتال المشركين ، فلن يضيع الله ثواب أعمالهم ، وهم عنده - عز وجل - أحياء ينعمون برزق دائم ، ونعيم مقيم . فرحين بما آتاهم ربهم من فضله .

قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحد ، ورسول الله ﷺ فى الشِّعب وقد فشت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : اعْلُ هبَل ، ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل . وقال المشركون : يوم أُحد بيوم بدر والحرب سجال . فقال النبى ﷺ : « قولوا : لَا سواءَ ؛ قتلانا أحياءٌ عند ربهم يرزقون ، وقتلاكم فى النار يعذبون . فقال المشركون : إن لنا العزى ولا عزى لكم . فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم .

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ) المراد : هداية هؤلاء الشهداء إلى الجنة بإرشادهم إلى مسالكها والطرق المفضية إليها ليصلوا إلى ثواب أعمالهم من النعيم الخالد والفوز الدائم والفضل العظيم ، أو سيحقق الهداية لمن بقى منهم بصونهم عمَّا يورث الضلال ويحبط الأعمال ، وكما أنه - سبحانه وتعالى - تكفل بأنه سيهديهم فقد تكفل كذلك بأن يصلح بالهم ، أى : شأنهم ، قال الطبرسى : المراد إصلاح ذلك فى العقبى . ولا تكرار لذلك مع قوله - سبحانه - : (كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) لأن المراد به هناك إصلاح شأنهم فى الدين والدنيا ، فاختلف المراد .

٦ - (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) :

أى : إذا دخلوها يقال لهم : تفرقوا إلى منازلكم التى حددت لكم ، وهديتم إليها ، أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد أنه قال : يهدى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها أحدًا ، وفى الحديث : « لأَحَدُكم بمنزله فى الجنة أَعْرَفُ منه بمنزله فى الدنيا » وذلك إلهامٌ منه - عز وجل - أو طيبها لهم بأنواع الملاذ

- كما قال ابن عباس - من العَرْف : وهو الرائحة الطيبة ،ومنه : طعام مُعَرَّف ، أى : مطيَّب ، وعن الجبائى أن التعريف فى الدنيا ، وهو بذكر أوصافها ، والمراد أنه - تعالى - لم يزل يمدحها لهم حتى عشقوها ، فاجتهدوا فيما يوصلهم إليها . وقال الحسن : وصف الله - تعالى - لهم الجنة فى الدنيا فلما دخلوها عرفوها بصفتها .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) : عند القتال ، أو على محجة الإسلام ، أو على الصراط .

(فَتَعْسًا لَّهُمْ) أى : هلاكًا ، والتعس كما يطلق على الهلاك يطلق على العثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط كما فى القاموس . والفعل من باب (منع) ، وجوز قوم تَعِسَ - بكسر العين - من باب فَرِح ، ومنه حديث أبى هريرة : « تَعِسَ عبد الدينار والدرهم » .

(وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى : أبطلها ؛ لأنها كانت للشيطان وفى سبيله .

(فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) أى : أهدرها وكانت فى صور الخيرات كعمارة المسجد وقرى الضيف وأصناف القُرب .

التفســـير

٧- (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) :

أى : إن تنصروا دين الله ورسوله ﷺ بتحمل مشاق الدعوة وما تتطلبه من بذل وتضحية ينصركم على أعدائكم ، ويفتح لكم ؛ إذ هو - سبحانه - المعين الناصر ، وغيره هو المُعَان

المنصور ، ويثبت أقدامكم فى مواطن الحرب ومواقفها ، أو على محجة الإسلام ، ويمدكم دائماً بالتمسك بالطاعة والتوفيق .

٨ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) :

دعاء على الذين كفروا بالله وأعرضوا عن دينه ، أى : فهلاكًا لهم وشقاء ، وهو منصوب بفعل من لفظه محذوف وجوبا سماعًا ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - يريد فى الدنيا القتل ، وفى الآخرة التردى فى النار ، وقيل غير ذلك .

(وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) لأنها كانت للشيطان الذى زين لهم الضلال ، وحبب إليهم الفسوق والعصيان وبذلك استحبوا العمى على الهدى .

٩ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) :

أى : ما ذكر من التعس وضلال الأعمال بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من القرآن الكريم لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام التى تخالف ما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء ، فأهدر الله لأجل ذلك أعمالهم التى كانت موطن فخرهم من صور الخيرات كعمارة المسجد الحرام وقِرَى الأضياف ، وأصناف القرب الأخرى ، إذ الإيمان شرط للإثابة على الأعمال فلا يقبل الله العمل إلَّا من مؤمن ، وقيل : أحبط أعمالهم ، أى : عبادة الأصنام .

وفى الآية تخصيص وتصريح بسببية الكفر بالقرآن الكريم للتعس والإضلال .

* (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا
تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ
قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾
أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ
وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(عَاقِبَةُ) : آخرة ، وعاقبة كل شيء : آخره .

(دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ) : أهلك الله عليهم ما يختص بهم ، يقال : دمَّرهم ، أى : أهلكهم ، ودمَّر عليهم ، أى : أهلك عليهم ما يختص بهم وهو أبلغ .

(مَوْلَى) : ناصر .

(مَثْوًى) : منزل ودار إقامة .

التفسير

١٠ - (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) :

بينت الآيات السابقة فى مستهل هذه السورة شيئًا من أحوال الكافرين، والمؤمنين، ووعدت المؤمنين بالنصر والتمكين فى الأرض، والتثبيت على محجة الإسلام، إذا نصروا الله ورسوله ونَعَتْ على الكافرين كفرهم وما يجرى عليهم من التعس والخسران وبطلان الأعمال، ثم جاءتْ هذه الآية التى تدعو إلى النظر فى عاقبة الأمم السابقة التى سلكت مسالك الكفر فوقعت فى متاهات الضلال .

والمعنى : أَقَعَدَ هؤلاء الكفار فلم يسيروا فى نواحى الأرض ، ولم يضربوا فى مناكبها فيروا عاقبة الذين كانوا من قبلهم على مثل حالهم من الكفر والعناد ، وما نزل بهم من عذاب ، وحَلَّ بديارهم من تدمير وخراب ؟ ! أهلكهم الله ودمَّر عليهم كل ما لهم من أموال ومنازل . ولكم - أيها الكافرون - أمثال ما لهؤلاء السابقين فإنكم جميعًا فى الكفر سواء .

ووضع الظاهر موضع الضمير لإبراز الجزاء مع الإشارة إلى استحقاقه بذكر سببه .

١١ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ) :

أى : ذلكَ الجزاء الذى مضى به قضاء الله ، وجرت عليه سنته من تدمير الكافرين ، واستئصال المفسدين مع نصر الموحدين والتمكين للطائعين - ذلك كله - جار على سنة أنه - تعالى - ولى المؤمنين يهديهم وينصرهم ، ويصلح حالهم ، وأن الكافرين ضائعون ، لا ناصر ينصرهم ، ولا مُعين يُعينهم أو يدفع عنهم .

ولا يخالف هذا قوله - تعالى - : « وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ »[1] فإن المولى فيه بمعنى المالك ، وفى الآية التى نحن بصددها بمعنى الناصر .

---

(١) سورة يونس من الآية ٣٠

سأل أبو سفيان يوم أحد عن النبي ﷺ وعن أبي بكر ، وعمر - رضى الله عنهما - فلم يُجَبْ ، قال : أمَّا هؤلاء فهلكوا ، وأجابه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال : كذبت يا عدوَّ الله ، بل أبقى الله - تعالى - ما يسوؤك ، وإن الذين عددت أحياءٌ ، فقال أبو سفيان : يومٌ بيوم ، والحربُ سجال ، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً[1] لم آمر بها ولم أَنْهَ عنها ، ثم ذهب يرتجز ويقول : اعْلُ هُبَل - اعْلُ هبل . فقال النبي ﷺ : ألا تجيبوه ؟ قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجلّ . ثم قال أبو سفيان : لَنَا العُزَّى ولا عُزَّى لَكُم . فقال ﷺ : ألا تجيبوه ؟ قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُم .

١٢ - (إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) :

هذه الآية بيان لثمرة ولايته - تعالى - للمؤمنين الأخروية بعد بيان ثمرتها فى الدنيا بالنصر ، والتمكين فى الأرض .

والمعنى : إن الله - تعالى - يتفضل على عباده الذين آمنوا به والتزموا طاعته بفعل المأمورات وترك المنهيات - يتفضل عليهم - فى الآخرة فيدخلهم جنات تزدهى بألوان الجمال من أشجار تجرى من تحتها الأنهار ، ومناظر تعجب الأبصار ، زاخرة بأطايب الخيرات ، والثمار ، وأصناف من الفواكه كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة .

والذين كفروا وركنوا إلى الدنيا ، وغرتهم زخارفها ، وجرفهم متاعها فاندفعوا وراء شهواتهم يأكلون كما تأكل الأنعام نهمِين غافلين ، لا يهمهم إلا إشباع بطونهم ، وإرضاءُ غرائزهم ، لا يفكرون فى حساب ، ولا يتدبرون فى عاقبة هواهم - هؤلاء فى الآخرة - النار مثواهم ودار إقامتهم ، يطعمون زقُّومها ، ويشربون حميمها ، ويصطلون بلهيبها جزاءَ غفلتهم فى دنياهم ، وبعدهم عن سواء السبيل .

---

(١) المثلة : التمثيل بالقتيل بنحو قطع اليد أو الأنف بعد القتل .

١٣ - (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِيَ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ) :

الخطاب فى هذه الآية إلى الرسول ﷺ تسلية له وتهوينًا عليه أمر هجرته من بلدته ، وتهديدًا للمشركين بالهلاك والدمار كما هلك من كانوا قبلهم من الطغاة المتجبرين الذين كانوا أشد منهم بطشًا ، وأعظم قوة ومنعة فأقفرت منهم الدنيا ، وخلت الديار .

والمعنى : وكم من قرية كان أهلها أشد قوة ، وأعتى بطشًا ، وأعز سلطانا ومنعة من أهل قريتك : مكة التى أخرجك منها أهلها بتتابع أذاهم ، وتلاحق كيدهم ، وسوء مكرهم ، وتدبيرهم ، فكانت نهاية أمرهم الهلاك بأنواع العذاب ، فلم يكن لهم دافع يدفع عنهم ، ولا ناصر ينصرهم ، فهؤلاء المشركون من أهل مكة لهم نهاية كنهايتهم إن استمروا على كفرهم .

أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس أن النبى ﷺ لمَّا خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : « أنتِ أحبُّ بلاد الله - تعالى - إلى الله وأنتِ أحبُّ بلاد الله - تعالى - إلىَّ ، ولولا أنَّ أهلَكِ أخرجونى منك لم أخرج منك » .

١٤ - (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم) :

هذه الآية تستحث العقل وتستنهض الفكر إلى ضرورة النظر ، والتمييز بين الحق ، والباطل ، والصحيح والفاسد ، والضار والنافع ، والتسامى عن الانقياد الأعمى للآباء ، واتباع الشهوات ، بعد بيان نعيم المؤمنين ، وشقاء الكافرين .

والمعنى : أيستقيم فى العقل السليم ، والفكر القويم أن يستوى مَنْ كان على حجة ظاهرة وبرهان نيِّر من الله مالك أمره ومربِّيه ، فأيده بالقرآن وسائر المعجزات والحجج العقلية - أفمن كان كذلك - يماثل من زيِّن له الشيطان سوء عمله ، وحسن له سبل غوايته ، فأمعن فى الشرك الذى هو أقبح القبائح ، وانغمس فى المعاصى والمنكرات ، وجرى مع الغواة والمفسدين فاتبعوا أهواءهم الفاسدة ، ونزواتهم الطائشة ، وانهمكوا فى الملذات ، وذابوا فى الضلالات ؟!!

وجمع الضمير فى قوله : (وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم) مراعاة لمعنى (مَنْ) وأفرد مع قوله : (أَفَمَن كَانَ) مراعاة للفظها .

(مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾)

المفـــردات :

(مَثَلُ) المثل : الوصف العجيب الشأْن .

(آسِنٍ) : متغير الطعم والرائحة .

(لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ) : لم يصر فيه حموضة كألبان الدنيا ولا مايكره من الطعوم .

(مُّصَفًّى) : خال من الشمع ومن جميع العلائق والمخلفات .

(حَمِيماً) : حارًّا بالغ الحرارة .

(أَمْعَآءَهُمْ) : جمع مِعًى . وهى ماينتهى إليها الطعام فى البطن .

التفسير

١٥ - (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ . . .) الآية :

هذه الآية كلام مستأْنف مسوق لشرح محاسن الجنة الموعودة للمؤمنين فى قوله - تعالى - آنفًا : (إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ....) وتصوير نعيمها ، وتعداد خيراتها ، ومقارنة نعيم أهلها بعذاب أهل الجحيم .

والمعنى : مثلُ الجنة الموعودة للمؤمنين ، وشأنها العجيب ما يتلى عليكم من جلائل النعم ، فى هذه الجنة أنهار من الماء النقى المتجدد الذى لم يداخله كدر ، ولم يلحقه تغير فى لون أو طعم لطول مكثه ، وأنهار من لبن لم تطرأ عليه حموضة ولم يستكره له طعم، كما يحدث فى ألبان الدنيا ، وأنهار من خمر لذيذ الطعم مستساغ المذاق ليس فيها كراهية ريح ، ولا غائلة سكر ، ولا يجد شاربها إلّا اللذة والمتعة ، وأنهار من عسل خالص صرف مصفًّى من الشمع ، ومن جميع الشوائب وفضلات النحل ، وفيها غير هذا من كل الثمرات ، وأصناف المطعومات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وكل ذلك من الوفرة والكثرة بحيث لا يخاف منه حرمان ، ولا إقلال . ولهم قبل هذا مغفرة واسعة من ربهم تمحو ذنوبهم ، وترفع درجاتهم .

وقوله تعالى : (كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِى النَّارِ) معناه : أَمَثَل الجنة التى أُعدت للمتقين وعلمتم أوصافها كمثل جزاء من هو خالد فى النار متهاوٍ فى دركاتها ، شرابُهم فيها الحميمُ الشديد الحرارة ، فإذا شربوا منه قطع أمعاءهم ؟!

والتعبير عن فريق المؤمنين بالمتقين يؤذن بأن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها ، وترك السيئات عن آخرها ليتقى عذاب الله على تركها . كما أن التعبير عن فريق الكافرين بمن هو خالد فى النار ، لإبراز مهانتهم بسوء مآلهم ، وتأبيد عذابهم .

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟
لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى
وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم
بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾
فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾)

المفـــردات :

(الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) : الصحابة الذين وعوا حديث رسول الله ﷺ .

(آنِفًا) أى : سابقًا ، وهو اسم للساعة التى قبل الساعة التى أنت فيها ، وهو اسم فاعل على غير قياس ؛ لأنه لم يسمع له فعل ثلاثى .

(طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) : طمس الله على قلوبهم وختم عليها .

(بَغْتَةً) : فجأة .

(أَشْرَاطُهَا) : علاماتها .

(مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) أى : مكان تقلبكم فى الدنيا ، وموطن إقامتكم فى الآخرة .

التفســير

١٦ - (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ ...) الآية :

تحكى هذه الآية صورة من صور بعض المشركين ، ونموذجًا من سلوكهم فى مجلس النبى ﷺ وأصحابه الذين يجلسون إليه ، ويتلقون عنه ، ثم تمضى الآيات بعدها فى مقارنة

بين الذين طبع الله على قلوبهم ، وبين المهديين من المؤمنين لتُبرز مقدار سفه المشركين ، ورشد المؤمنين .

والمعنى : ومن هؤلاء الكافرين المتورطين فى نعيم الدنيا بغير اعتبار ولا تدبر للعاقبة - من هؤلاء - من يحضر إلى مجلسك ليستمع ما تقرؤه على أصحابك من قرآن ، وما توجههم إليه من هَدْى ، حتى إذا خرجوا من عندك وفارقوا المجلس قالوا لمن حضرك وكان معهم من الصحابة رضوان الله عليهم - قالوا - فور خروجهم : ماذا قال محمد سالفًا فى المجلس الذى كنا فيه ؟ يقولون ذلك سخرية واستهزاء كأنَّهم لم يفهموا ما قال الرسول ، أو كأنه كلام لا ينهض إلى درجة الفهم ، أو لا ينبغى سماعه فضلًا عن فهمه - أولئك القائلون هذا القول - هم الذين طمس الله على قلوبهم ، وأظلم بصيرتهم بسوء اختيارهم ، واتبعوا أهواءهم الفاسدة ، ونزعاتهم الطائشة فقالوا ما قالوا ، وفعلوا ما فعلوا مما لا خير فيه .

١٧ - (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) :

أى : الذين طلبوا الهداية وحرصوا عليها حتى نالوها ، وهداهم الله إلى طريق الحق وثبتهم عليها - هؤلاء - زادهم الله هدى بالتوفيق والفهم وآتاهم تقواهم ، أى : أعانهم على العمل الصالح الذى يقيهم عذاب الله ، ويدنيهم من ثوابه .

وقوله - تعالى - : (وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) مقابل لقوله - تعالى - فى شأن الكافرين : (وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم) ومن بديع التنسيق وإحكام الإعجاز أن أغلب الآيات فى هذه السورة جارٍ على هذا التقابل ، كما فى قوله - تعالى - : (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ) . وقوله : (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) ومن ذلك أيضًا : (طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) . مقابل : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا) .

١٨ - (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ) :

أى : فهل ينتظر هؤلاء الغافلون اللاهون إلا القيامة تباغتهم ، وتأتيهم فجأة وهم فى غفلة

لايتذكرون بذكر أحوال الأُمم الخالية ، ولا بالإخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظائم الأهوال فقد جاء أشراطها ، وظهرت أماراتها فلم يرفعوا لها رأسًا ، ولم تنبه فيهم غافلا ، ولم يعدوها من مبادئ إتيانها مع مشاهدتهم لها كانشقاق القمر ، وغير ذلك من الأشراط التى أهمها بعثة الرسول ﷺ ولهذا جاء فى أسمائه أنه نبيّ التوبة ، ونبيّ المَلْحَمَة ، والحاشر الذى يحشر الناس على قدميه ، وقال البخارى : حدثنا أحمد بن المقدام ، حدثنا فضيل بن سليمان ، حدثنا أبو رجاء حدثنا سهل بن سعد – رضى الله عنه – قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بأُصبعيه هكذا بالوسطى والتى تليها : « بعثتُ أنا والساعة كهاتين » .

وقوله تعالى : (فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ) معناه : فكيف للكافرين المنكرين الانتفاع بالتذكير إذا جاءتهم القيامة ، وأى سبيل لهم إليه ؟ وهو حكم بخطئهم وفساد رأيهم فى تأخير التذكر إلى إتيانها ببيان استحالة نفعه حينئذ كقوله – تعالى – : « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ »(١) .

١٩ – (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) :

قوله تعالى : (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ) أمر مسبب عن مجموع القصة من مفتتح السورة حتى هنا ، على معنى : إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة أُولئك فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله ، فهو من موجبات السعادة ولا يهمك كفر هؤلاء بوحدانيته ، فقلوب العباد ونواصيهم بيده ، ومصادر الأُمور ومواردها بأَمره ، يضل من يشاءُ ويهدى من يشاءُ ، ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، واستغفر لذنبك ، وتضرع إلى الله أن يغفر لك فى كل حال ما هو دونه ، فقد ذكر العلماءُ أن لنبينا – عليه الصلاة والسلام – فى كل لحظة عروجًا إلى مقام أعلى ممَّا كان فيه ، فيكون ما عرج منه فى نظره الشريف ذنبًا بالنسبة لما عرج إليه فيستغفر منه ، وحملوا على ذلك قوله – عليه الصلاة والسلام – : « وإنه ليران على قلبى » .

(١) سورة الفجر ، من الآية : ٢٣ .

ويجوز أن يكون استغفاره ﷺ من قبيل ترك الأَولَى بالنسبة إلى منصبه الجليل مما يمكن أن يكون بالنسبة لغيره من أجلّ الحسنات ، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ومهما يكن أو يُقَلْ فإن النبي ﷺ يؤدى لله جميع الطاعات ، ويتضرع برفع الدعوات أداء لشكر آلائه ، ورفعًا لدرجاته ، وإرشادًا للمؤمنين .

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) أى : والله يعلم أطواركم فى الدنيا ومراحلكم فيها ، فإنها أطوار ومراحل لابد من قطعها لا محالة ، يستقيم فيها من يستقيم ، ويضل من يضل ، ويعلم مثواكم ومستقركم فى الآخرة ، أهل النعيم فى دار النعيم ، وأهل العذاب فى الجحيم ، فإن الآخرة هى العقبى ، وهى منازلكم ، ومواطن إقامتكم فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم فيهما فبادروا إلى الامتثال بما أمركم به فى المقامين ، فإنه زادكم عند من لا تخفى عليه أحوالكم .

وخص المتقلب فى الدنيا ، والمثوى فى الآخرة ؛ لأن الدنيا دار حركة دائبة ، وتقلب مختلف لطلب الرزق وغيره ، أما الآخرة فدار سكون واستقرار ، لا تقلب فيها ولا مدار . فالرزق فيها موفور والنعيم مقيم .

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ
مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾
طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ
خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ
وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ
أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾)

المفـــردات :

(سُورَةٌ) : طائفة من آيات القرآن تأذن بالجهاد .

(مُحْكَمَةٌ) : مبينة قاطعة لاتتأول فيها .

(مَرَضٌ) : ضعف إيمان ونفاق .

(الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) : من حضرته أعراض الموت وغشيته .

(أَوْلَىٰ لَهُمْ) : هلاك وعذاب لهم .

(عَزَمَ الْأَمْرُ) : جد الأمر .

(عَسَيْتُمْ) : قاربتم .

(أَقْفَالُهَا) : جمع قفل : وهو مايحكم به الغلق .

التفسير

٢٠ – (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ) :

عرضت الآيات السابقة شيئاً من أحوال الكافرين ، واختصت منهم طائفة تسمع إلى الرسول ﷺ في مجلسه ثم تنكر ما سمعت فور خروجها من المجلس ، وتتساءل عنه سخرية واستهزاء ، وإمعانًا في العناد ، ثم جاءت هذه الآيات بعدها على سنن هذا النسق تتناول الذين اهتدوا وبارك الله هداهم ، وآتاهم تقواهم ، واختصت منهم جماعة يتعجلون تنزيل آيات من القرآن قاطعة في الإذن بالجهاد ليضربوا على أيدي المشركين ، ويردوا كيدهم ، وينهنهوا[1] جبروتهم ، فإذا أنزلت هذه الآيات أشفق من نزولها مرضى القلوب وضعاف الإيمان ، وشملهم الضجر ، وتَغَشَّاهم الخوف حتى أفزع قلوبهم ، ونظروا إلى الرسول نظر المغشى عليه من الموت .

وفسر بعض المفسرين (الذين في قلوبهم مرض) بالمنافقين ، والسورة مكية والمجتمع المكي كان صريحاً لا نفاق فيه ولا ضعف إيمان ، اللهم إلا أن يكون ذلك مما سبق حُكْمُهُ نزولَهُ ، أو تكون الآية مدنية .

والمعنى : ويقول الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله وأجابوا دعوته – يقولون – حرصا على الجهاد ، وتحمسا لنصرة الدعوة ، وتوعدا للمشركين : هلَّا أنزل الله طائفة من القرآن بينة قاطعة بمشروعية الجهاد ، والإذن به حتى ننتصر لدعوتنا ، ونرد كيد أعدائنا ، فإذا أنزلت سورة محكمة لا تشابه فيها ، وذكر فيها الإذن بالجهاد ، والأمر به صراحة بحيث لا يحتمل التأويل بوجه آخر – وكل آيات الجهاد محكمة كما قال قتادة – إذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض من ضعاف الإيمان والمنافقين خائفين مشفقين ، ينظرون – إليك – أيها الرسول الكريم – نظر من حضرته أعراض الموت ، وغشيته أماراته فشخص بصره جبنا وهلعا ، وقوله – تعالى – : (فَأَوْلَىٰ لَهُمْ) تهديد ووعيد

---

(١) أي : ينهبوه ويكفوه .

بمعنى فأهلكهم الله - تعالى - هلاكاً أقرب لهم من كل شر وهلاك . أو الكلام على تقدير مبتدأ وأولى خبره ، أى : فأولى لهم الهلاك .

٢١ - (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) :

كلام مستأنف ، أى : أمرهم طاعة ، أو طاعة وقول معروف خير لهم . ويجوز أن يكون حكاية لقولهم ، ويؤيده قراءة أبي : (يقولون طاعة) أى : أمرنا طاعة . وقولنا معروف (فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ) أى : إذا جدّ الأمر بالقتال وأخذ طريق التنفيذ خالفوا وتخلفوا ، أو ناقضوا ، أو كرهوا ، فلو صدقوا الله فى الحرص على الجهاد ، ورجاء مشروعيته لكان الصدق خيرًا لهم مما صاروا إليه وظهر عليهم ، وقيل : لو صدقو الله فى الإيمان . وتأكد فى يقينهم ، ويجوز أن يكون جواب « إذا » جملة (فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) على طريقة قولك : إذا حضرنى طعام فلو جئتنى لأطعمتك .

٢٢ - (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) :

الخطاب للذين فى قلوبهم مرض ، والمعنى : فهل عسيتم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تعودوا إلى جاهليتكم الأولى من الإفساد فى الأرض وقتل بعضكم بعضاً ، وتقطيع الأرحام بينكم تناصراً على الباطل ، وتهالكا على الدنيا ، فإن ضعفكم فى الدين ، والحرص على الدنيا جعلكم حين أمرتم بالجهاد الذى هو السبيل إلى إحراز كل خير وصلاح ، ودفع كل شر وبلاء جعلكم حين أمرتم به تشفقون على أنفسكم ، وتنقضون عهدكم ، ومن كان كذلك لايبعد عنه التولى عن الإيمان والعودة إلى الشرك لكى تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ، كعادتكم فى الجاهلية .

ويصح أن يكون المعنى : فهل عسيتم إن توليتم أمور الناس وتأمّرتم عليهم أن تفسدوا فى الأرض وترجعوا إلى التناهب والقتل وقطع الأرحام ووأد البنات : كما كنتم فى الجاهلية .

وتخصيص الأرحام بالذكر تأكيد لحقها ، وذم لما يشيع بين كثير من الناس من جفائها ، وتحذير منه ، وقد قال - تعالى - : (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)

٢٣ - (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ) :

الإشارة فى (أولَٰئِكَ) للمخاطبين فى قوله تعالى : (فَهَلْ عَسَيْتُمْ) بأسلوب الالتفات تحقيراً لشأنهم ، وحكاية لفظائع أحوالهم .

والمعنى : أولئك المذكورون آنفاً لعنهم الله فطردهم من رحمته ، وأبعدهم عن مغفرته فأذهب أسماعهم لتصامِّهم عن سماع الحق ، والإذعان له ، وأعمى أبصارهم لتعاميهم عن مشاهدة الآيات الكثيرة الماثلة فى أنفسهم ، وفى الآفاق المنصوبة حولهم ، فعلوا كل ذلك باختيارهم فتركهم الله ولم يُنقذهم ، وأبقاهم فى صممهم عن آيات الحق ، وعماهم عن دلائله .

٢٤ - (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) :

أى : أغفل هؤلاء ، وضلوا فلا يتدبرون القرآن ،ولا يراجعون ما فيه من المواعظ والزواجر حتى يُخلصوا فى إيمانهم ، ويمتثلوا أمر الله بالجهاد كما امتثله المؤمنون ، إنهم لم يتدبروا ولم يتفكروا ، بل قلوبهم مقفلة محكمة الغلق بالأقفال والمغاليق ، فلا يكاد يصل إليها ذكر ، ولا يتحرك فيها تأمل أو فكر فتحولوا عن التفكر إلى الطمس والتحجر .

وتنكير القلوب : إما لتهويل حالها بإبهام أمرها فى القساوة والجهالة فهى قلوب منكرة لايُعْرَف مثل حالها ، ولايُقادر قدرها فى الغفلة والجمود ، وإما لأن المراد منها قلوب بعضهم ، فالتنكير للتقليل .

وإضافة الأقفال إلى القلوب للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لحالها من القسوة والفظاظة غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة .

واستدل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بالآية على منع بيع الجارية إذا ولدت ، أخرج الحاكم وصححه وابن المنذر عن بريدة قال : كنت جالساً عند عمر إذ سمع صائحاً ، فسأل ، فقيل : جارية من قريش تباع أمها ، فأرسل يدعو المهاجرين والأنصار ، فلم تمض ساعة حتى امتلأت الدار والحجرة ، فحمد الله - تعالى - وأثنى عليه ثم قال : أما بعد :

فهل تعلمون أن كان مما جاء به محمد ﷺ القطيعة ؟ قالوا : لا ، قال : فإنها قد أصبحت فيكم فاشية ، ثم قرأ : (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) ثم قال : وأىّ قطيعة أقطع من أن تباع أم امرئ فيكم ؟ قالوا : فاصنع ما بدا لك ، فكتب فى الآفاق : أنْ لاتباعَ أُمُّ حُرٍّ ، فإنها قطيعة رحم وإنه لايحل .

ويلاحظ أن الجارية تعتق بعد وفاة سيدها من أجل ولدها منه ذكرًا كان أو أنثى ، فلا يحل له بيعها ويحرمها من حريتها المرتقبة .

(إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا
لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا
رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ
فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾)

المفـــردات :

(ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم) : رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر .

(سَوَّلَ لَهُمْ) : سهل لهم وحسّن ،

(وَأَمْلَىٰ لَهُمْ) : أمهلهم ومد فى الأمانى .

(أَسْخَطَ اللَّهَ) : أوجب غضبه وعقابه .

(أَحْبَطَ) : أبطل وأذهب .

(أَضْغَانَهُمْ) : أحقادهم جمع ضغن .

(بِسِيمَاهُمْ) : بعلامتهم المميزة لهم .

(لَحْنِ الْقَوْلِ) : فحواه ومعاريضه من لحنت له ، بمعنى قلت له قولا فهمه عنى وخفى على غيره ، وفيه : لحِن – بالكسر – من باب طرب بمعنى فطن ، ولحنَ – بالفتح – من باب نفع بمعنى أخطأ .

التفسير

٢٥ – (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ) :

هذه الآيات امتداد للحديث عن مرضى القلوب ضعاف الإيمان ، تكشف دخائلهم ، وتفضح سرائرهم ، وتهددهم بإظهار أمرهم ، وسوء عاقبتهم ، قال الآلوسى : وفى إرشاد العقل السليم : هم المنافقون الذين وصفوا فيما سبق بمرضى القلوب وغيره من قبائح الأحوال فإنهم قد كفروا به – عليه الصلاة والسلام – وقال ابن عباس وغيره : نزلت فى منافقين كانوا قد أسلموا ثم نافقت قلوبهم ، وما قاله ابن عباس لايخالف ما جاء فى إرشاد العقل السليم الذى تقدم ذكره ، فهم جميعاً ارتدوا عن الإسلام ، وهم جميعاً مرضى القلوب الذين سبق وصفهم بقبائح الأعمال ، وقيل : هم اليهود ، وقيل : هم أهل الكتاب جميعاً .

والمعنى : إن الذين رجعوا إلى ماكانوا عليه من الكفر وارتكاب المعاصى ، وإشاعة الفساد من بعد ماتبين لهم الهدى ، واتضح أمامهم السبيل والقصد ، والسلوك السوى بالدلائل الباهرة ، والمعجزات القاطعة القاهرة – إنهم – وقعوا فى حبائل الشيطان الذى سهل لهم سبل الغواية ، ويسر أسباب الكفر ، وأمهلهم فى هذا السبيل ، ومد لهم فيه ما شاء من إضلال وإغواء ، وما شاءوا من قبائح وجوامح أهواء

٢٦ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَانَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ) :

المعنى : ذلك الارتداد إلى الكفر ، والنكسة إلى الجاهلية بسبب أن هؤلاء المرتدين قالوا للذين كرهوا ما نزل الله من القرآن على سيدنا محمد ﷺ حقداً وحسداً مع علمهم أنه من عند الله ، وطمعاً فى إنزاله عليهم ، وهم يهود بنى قريظة والنضير الذين قال لهم المرتدون : سنطيعكم فى بعض الأمر ، أى : فى بعض أموركم وأحوالكم ، وهو ما حكى عنهم فى قوله - تعالى - : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ، وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »[1] أى : سنطيعكم فى بعض ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد ، والموافقة على الخروج معهم إذا خرجوا ، والتناصر مع اليهود ، وغير ذلك مما بيّتوه سرًّا ، ودبّروه خفية ففضحه الله ، والله يعلم إسرارهم وإخفاءهم فيكشفه فى الدنيا ، ويعذبهم عليه فى الآخرة .

٢٧ - (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) :

المعنى : هؤلاء المرتدون يفعلون ما يفعلون ، ويحتالون بحيلهم الخسيسة فى الدنيا ، فكيف يكون حالهم ، وأى شىء يفعلون إذا حضرهم الموت ، وغلّلتهم أعراضه وغشيتهم أهواله ، فلم تبق لهم حيلة ، ولم يستطيعوا فكاكاً أو وسيلة . وتتوفاهم الملائكة على أهول الوجوه وأفظع الحالات ، يضربون وجوههم احتقاراً وأدبارهم امتهاناً واستصغاراً .

وضرب الوجوه والأدبار زيادة فى المهانة والإذلال ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - : « لا يتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة فى وجهه وفى دبره » .

٢٨ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) :

ما تزال الآيات تمضى فى أحوال المرتدين وتكشف سلوكهم .

(١) سورة الحشر ، الآية : ١١

والمعنى : ذلك الذى يجرى عليهم من المهانة عند الموت من ضرب وجوههم وأدبارهم إذلالا واستهزاء بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله واستوجب غضبه من الكفر وارتكاب المعاصى وكرهوا ما يرضاه – جلّ شأنه – من الإيمان وعمل الطاعات ، وما يقتضى مغفرته ورضوانه فأحبط الله أعمالهم ، أى : أبطل ثواب الأعمال الطيبة التى عملوها حال إيمانهم .

وفى تعليل ضرب الوجوه والأدبار باتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه ما يشير إلى أن اتباع ما أسخط الله يقتضى التوجه والتحول فيناسبه ضرب الوجه ، وكراهة رضوان الله يقتضى الإعراض والتولى فيناسبه ضرب الأدبار .

٢٩ – ٣٠ – (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ) :

المعنى : بل أحَسِبَ الذين فى قلوبهم مرض ، فأخفوا كفرهم وأسروا ضغنهم وعداوتهم أنه لن يخرج الله أحقادهم فيظلوا مستورين مجهولين لا يفضح الله أحقادهم ، ولا يعلن أضغانهم للرسول ﷺ وللمؤمنين ؟ كلا ، فهو حسبان باطل ، وظن خاطىء ، ولو نشاء إعلامك لأعلمناك بهم ، ولعرفناكهم بدلائل تعرفهم بها بأعيانهم فلعرفتهم بسماهم وبعلاماتهم التى نسمهم بها ،والله لتعرفنّهم فى فحوى القول ومعاريضه ، دون حاجة إلى تعريفك بسماهم والعلامات المميزة لهم ، والله يعلم أسراركم وخفاياكم فيجازيكم – أيها المنافقون – عليها لا يخفى على الله منها شىء .

والالتفات إلى نون العظمة فى قوله – تعالى –: (وَلَوْ نَشَآءُ) لإبراز العناية بالإراءة ، وعن أنس – رضى الله عنه – : « ماخفى على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شىء من المنافقين » .

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ
وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا
وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾

المفــردات :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) : لنختبرنكم .

(شَاقُّوا الرَّسُولَ) : عادوه وعاندوه .

(سَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ) : سيبطل أعمالهم ويمحو ثوابها .

التفسير

٣١ - (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ) :

هذه الآية الكريمة بمثابة التذييل الشامل للآيات السابقة التى تناولت طوائف المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين الذين فى قلوبهم مرض ، توضح أن حكمة الله - تعالى - تقتضى أن يعامل خلقه وعبيده معاملة الممتحن لهم ، المختبر لأحوالهم لتنكشف حقائقهم ، ويظهر - واقعاً وعملا - ما يعلمه الله أزلا . فيجرى عليهم جزاؤه على مقدار ما يكون من أحوالهم ومايجنيه عليهم اختيارهم السيئ فى سلوكهم وأعمالهم .

والمعنى : ولنعاملنكم معاملة الممتحن لكم ، المتطلب معرفة أخباركم وأسراركم حتى نعلم من واقع أعمالكم ، ونعرف من ظواهر أحوالكم ، ومشاهد سلوككم فيما فرض عليكم من

التكاليف والأوامر والنواهى ، التى من جملتها الجهاد ، ونعلم الصابرين على مشاقها ، الصادقين فى أدائها ، وتظهر أحوالكم وأخباركم فيترتب على هذا جزاؤكم العادل الذى تشهد به أعمالكم ، وتصدقه جوارحكم ، يوم تشهد عليكم ألسنتكم وأيديكم وأرجلكم بما كنتم تعملون .

٣٢ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ اللهِ وَشَآقُّوا۟ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ) :

هذه الآية وعيد لمن يكشف الامتحان حقيقة كفره ، ويفضح قبح طويته .

والمعنى : إن الذين كفروا فأنكروا وحدانية الله ، وعارضوا رسالة محمد ﷺ وصدوا الناس عن اتباعه وشاقوه ، وبالغوا فى عداوته وعناده حتى صاروا فى شق غير شقه من بعد ما تبين لهم الهدى فى معجزاته الحاسمة فى صدقه ، القاطعة برسالته ، ومن بعد ما علموا من نعوته ﷺ التى صرَّحت بها كتبهم ، وتحدثوا بها هم أنفسهم ، إن هؤلاء أيًّا كانوا ومهما كانوا لن يضروا الله بكفرهم ومشاقتهم وعنادهم شيئاً من الأشياء ، أو شيئا من الضرر ، والله بالغ أمره لأنه هو القادر الغالب ، وسيبطل مكايدهم التى نصبوها لإبطال دينه ، ومشاقة رسوله ، ويضيع ثواب ماعسى أن يكونوا عملوه من صالحات فى دنياهم .

٣٣ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ اللهَ وَأَطِيعُوا۟ الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَالَكُمْ) :

هذه الآية من جملة ثمرة الابتلاء وغايته ، فكما هددت الآية قبلها الكافرين وأوعدتهم جاءت هذه الآية تنبه المؤمنين إلى مداومة الطاعات والحرص على سلامتها .

والمعنى : يا أيها الذين صدقوا فى إيمانهم وتمحيص عقيدتهم ، وسلكوا مسالك الطاعة ، داوموا على هذه الأعمال الصالحة واحرصوا على سلامتها لتنالوا ثوابها ، فلا تُلْبِسُوها غشًّا ولا نفاقاً ، ولا تخلطوها بعُجْب أو رياء ، ولاتذهبوا بها مذهبا يأكل الحسنات من منٍّ أو أذى .

قيل : إن ناساً من بنى أسد قد أسلموا ، وقالوا لرسول الله ﷺ : قد آثرناك ، وجئناك بنفوسنا وأهلينا . كأنهم يمنُّون ، فنزلت .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ
وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾)

المفـــردات :

(فَلَا تَهِنُوا۟) : فلا تضعفوا ولا تزلوا .

(السَّلْمِ) – بفتح السين وكسرها – : الصلح والمهادنة .

(الْأَعْلَوْنَ) : القاهرون الغالبون .

(وَاللهُ مَعَكُمْ) : والله ناصركم ومعينكم .

(وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) : ولن ينقص أعمالكم ولن يضيعها .

التفسـير

٣٤ – (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ) :

فى الآية السابقة أمر الله – تبارك وتعالى – عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، ونهاهم عن الارتداد عن الدين؛ لأن الارتداد مبطل للأعمال فقال : (يَآأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ اللهَ وَأَطِيعُوا۟ الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَالَكُمْ) وهنا يذكر صفة الكفار ونهايتهم فيقول – سبحانه – : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ) .

قيل : نزلت هذه الآية فى أهل القليب ، وحكمها عام فى كل من مات على كفره ؛ لأن مدار عدم المغفرة هو الإصرار على الكفر حتى الموت .

والمعنى : إن الذين امتنعوا عن الدخول فى الإسلام وسلوك طريقه والاهتداء بهديه وصدوا الناس عنه ، ومنعوهم من الانضواء تحت لوائه ، ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم .

٣٥ - (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) :

الخطاب هنا للمؤمنين ، أى : إذا علمتم أن الله - تعالى - مبطل أعمال الكافرين ومعاقبهم وخاذلهم فى الدنيا والآخرة ، فلا تبالوا بهم ولا تظهروا ضعفاً أمامهم وتدعوا إلى المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبينهم ، فأنتم الذين قدر الله لهم النصر والغلبة . قال ابن كثير : أما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمامُ فى المهادنة والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ عام الحديبية ، حين صده كفار قريش عن دخول مكة للعمرة ، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم ﷺ إلى ذلك ، بل وسمى الله ذلك الصلح فتحاً مبينا ، وقوله - جلت قدرته - : (وَاللَّهُ مَعَكُمْ) بشارة عظيمة بالنصر على الأعداء والظفر بهم ؛ لأن من كان فى معية الله ومصاحبته لايخذل ولايذل ولاينتصر عليه مخلوق .

وقوله - تعالى - : (وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) أى : ولن يحبط أعمالكم ويبطلها ويسلبكم إياها ، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً .

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾)

المفـــردات :

(فَيُحْفِكُمْ) : فيجهدكم بطلب كل المال ويلحف عليكم فى المسألة .

(أَضْغَانَكُمْ) : أحقادكم الدفينة .

التفسير

٣٦ - (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ) :

أى : ما الحياة الدنيا إلا كاللعب واللهو ، فلا ثبات لها ولا استقرار ، ولا اعتداد بها ، شأنها كذلك إلا ماكان منها لله - عز وجل - وإن تؤمنوا بما أُنزل عليكم ، وتتركوا المعاصى والآثام ، وتفعلوا ما أمركم الله به من أنواع البر والخير وقاية لأنفسكم ، يؤتكم ثواب إيمانكم وتقواكم بعمل الباقيات الصالحات التى يتنافس فيها المتنافسون ، ولايطلب منكم التصدق بكل أموالكم ، فهو - سبحانه - يعطيكم كل الأُجور على أعمالكم ولا يسألكم إلا بعض المال ، وهو ما شرعه الله - سبحانه وتعالى - من الزكاة وغيرها لمواساة البائسين والتنفيس عن الفقراء والمحتاجين .

وقيل : معنى (وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ) : لا يسألكم ماهو مالكم حقيقة وإنما يسألكم ماله - عز وجل - فهو المالك الحقيقى لهذه الأموال التى أنعم بها عليكم .

وقيل : (وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ) أى : ولا يسألكم أموالكم لحاجته إليها بل ليرجع ثواب إنفاقكم إليكم فى يوم أنتم فى أشد الحاجة إلى هذا الثواب .

٣٧ - (إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ) :

أى : إن يسألكم الله أموالكم فيجهدكم بطلب كل الأموال تبخلوا بالأموال وتمتنعوا عن بذلها لمستحقيها ويظهر الله أحقادكم لمزيد حبكم لهذه الأموال ، وحرصكم عليها وكراهيتكم لإنفاقها .

قال ابن كثير : قال قتادة : إن فى طلب إخراج المال إخراج الأضغان . وصدق قتادة ؛ فإن المال محبوب ولايصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه .

وذكر الزمخشرى فى تفسير قوله – تعالى – : (وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ) أى : تحقدون على رسول الله وتضيق صدوركم لذلك ، وتظهرون كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم .

وقال سفيان بن عيينة : أى : لايسألكم كثيرًا من أموالكم ، إنما يسألكم ربع العشر ، فَطَيِّبوا أنفسكم .

٣٨ – (هَٰأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ، وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُمْ) :

(هَآ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ) أى : أنتم أيها المخاطبون–هؤلاء الموصوفون بما تضمنه قوله– تعالى – : (إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا) . . . إلخ . وكررت هاء التنبيه للتأكيد .

(تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ) استئناف مقرر ومؤكد لما قبله لاتحاد معناهما ، فإن دعوتهم للإنفاق معناه سؤال الأموال منهم ، وأنَّ بخل ناس منهم معناه عدم الإعطاء المذكور ، والإنفاق فى سبيل الله الذى دعى المخاطبون إليه هو الإنفاق المطلوب شرعاً مطلقاً ، فيشمل النفقة للعيال والأقارب ، والجهاد فى سبيل الله وإطعام الضيوف والزكاة ، وليس خاصاً بالإنفاق فى الغزو أو بالزكاة كما قيل .

(فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ) أى : فمنكم ناس يبخلون ويمتنعون عن الإنفاق فى سبيل الله وأوجه الخير ، والذى يبخل عن بذل المال وإنفاقه فى سبيل الله لايضر إلانفسه ؛ لأنه سيحرمها من ثواب البذل ، ثم أخبر – سبحانه – أنه لايأمر بالإنفاق ولا يدعو إليه لحاجته له ، ولكن لحاجتكم أنتم واحتياجكم للثواب فقال : (وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُمْ) :

أى : والله – سبحانه – هو الغنى الحقيقى بالذات لا غيره ، ، وأنتم الفقراء بالذات الكاملون فى الفقر ، فما يأمركم به – سبحانه – فهو لخيركم ومصلحتكم لاحتياجكم

إلى ما فيه من المنافع فى الدنيا والآخرة ، فإن امتثلتم فلكم ، وإن تعرضوا عن الإيمان وطاعة الله واتباع شرعه بالإنفاق وغيره من أنواع الخير يخلق مكانكم قوماً آخرين ، وهذا كقوله – تعالى – : « وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ [1] » ثم لا يكون هؤلاء القوم أمثالكم فى التولى عن الإيمان وطاعة الله ، بل يكونون راغبين فيهما ، مطيعين لأوامر الله ، قيل : هم الأنصار ، وقيل : أهل اليمن وقيل : كندة والنخع ، وقيل : الرُّوم ، وقيل : غير ذلك ، والخطاب لقريش أو لأهل المدينة : قولان .

والشرطية غير واقعة ، أى : قوله – تعالى – : (وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) فعن الكلبي : شرط فى الاستبدال توليهم ، لكنهم لم يتولوا فلم يستبدل – سبحانه – قوماً غيرهم . اهـ : آلوسى بتصرف .

---

(١) سورة فاطر من الآية ١٦

« سورة الفتح »

(وهى مدنية وآياتها تسع وعشرون)

مناسبتها لما قبلها

قال العلامة الآلوسى : حسن وضعها هنا بعد سورة محمد (القتال) :

١ - لأن الفتح بمعنى النصر رتب على القتال .

٢ - ولأنه ذكر فى كل منهما المؤمنين المخلصين والمنافقين والمشركين .

٣ - ولأنه قد جاء فى السورة الأولى محمد (القتال) الأمر بالاستغفار ، قال -تعالى - : « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » الآية ١٩ من سورة محمد ، وذكر هنا فى سورة الفتح وقوع المغفرة فى قوله - تعالى - : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) الآية رقم ٢ ، إلى غير ذلك من المناسبات المتعددة .

مقـــدمة :

جاء فى حديث صحيح أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما ما يدل على أن سورة الفتح نزلت بعد مُنصَرَفه ﷺ من الحديبية ، وأن ذلك عند كراع الغميم (مكان قرب مكة) فقرأها - عليه الصلاة والسلام - وهو على راحلته ، ومثل ذلك يعد مدنياً على المشهور ، وهو أن المدنى ما نزل بعد الهجرة .

ولقد بدئت السورة الكريمة بالبشارة بالفتح المبين ، وبما أفاء الله به على رسوله والمؤمنين من نصر عزيز وتأييد ، وبما أنزله من سكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، وذكرت جزاء المؤمنين وعذاب المشركين والمنافقين الذين تشككوا فى انتصار الرسول على أعدائه ، ثم تمضى الآيات مبينة أن الله أرسل محمداً للناس شاهداً ومبشراً ونذيراً ، ليتحقق الإيمان بالله ورسوله ، ويعم الخير والحق بين الناس بطاعته وتعظيمه - عز وجل - ومحدثة عن قدر الذين بايعوا الرسول وعاهدوه على نصرته ، والاستشهاد فى سبيل دعوته ، وأنهم بعملهم هذا ومبايعتهم له إنما يبايعون الله ، ويد الله فوق أيديهم بالنصر والتأييد ، فمن نقض منهم العهد بعد ميثاقه فضرر ذلك عليه ، ومن أوفى بالعهد فسيؤتيه الله أجراً عظيماً .

ووضحت الآيات صورة الموقف المخزى للأعراب الذين تخلفوا عن القتال مع رسول الله حينما دعاهم إلى النفير ، وأعذارهم الواهية الكاذبة فى ذلك ، وفضحتهم وكشفت عن نفاقهم وسوء طويتهم ، وأنهم تخلفوا عن القتال لظنهم السيء أن الله لن ينصر نبيه - وذكرت طلبهم الخروج معه بعد ذلك لا حبًّا فى القتال والجهاد ، ولكن حُبًّا للغنائم وابتغاء متاع الحياة الدنيا .

وتناولت الآيات أصحاب الأعذار الذين يباح لهم التخلف عن القتال لعجزهم عن مباشرته وأنهم لا إثم عليهم فى ذلك ، كما بينت السورة الخير العظيم الذى حظى به من رضى الله عنهم فى بيعة الرضوان ، وذكرت منَّة الله فى كف الكافرين عن المؤمنين ، والمؤمنين عن الكافرين يوم فتح مكة بعد أن نصرهم الله وأقدرهم عليهم ، وختمت السورة ببيان أن الله صدق رسوله الرؤيا بالحق ، وكان الرسول قد رأى فى منامه أنه يدخل هو ومن معه من المؤمنين المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لايخافون ، وبيان خُلُقِ محمد وأصحابه : (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) وببيان نعتهم وصفتهم فى التوراة والإنجيل، وبذكر ما أعده الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من المغفرة والأجر العظيم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾)

المفـــردات :

(فَتَحْنَا) أصل الفتح : إزالة الإغلاق ، وفتح البلد - كما فى الكشاف - : الظفر به عنوة أوصلحاً بحرب أو بغيرها ؛ لأنه منغلق ملم يُظْفر به ، فإذا ظفر به فقد فتح .

(نَصْرًا عَزِيزًا) : يقل وجود مثله ويصعب مناله .

التفسير

١ - (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً) :

المعنى : إنا فتحنا لك يامحمد فتحاً عظيماً بيناً ظاهرًا بانتصار الحق وأصحابه وخذلان الباطل وأربابه ، وقال قتادة : معناه : حكمنا وقضينا لك قضاء بيناً على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت الحرام ، يعنى فى عمرة القضاء .

فالفتح على هذا من الفتاحة : وهى الحكومة .

وقوله - تعالى - : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً) هو إخبار عن صلح الحديبية عند الجمهور سنة ست من الهجرة وروى ذلك عن ابن عباس وأنس ، قال ابن عطية : وهو الصحيح . وقال الزهرى : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم ، وتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير ، وكثر ، بهم سواد الإسلام قال القرطبى : فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف ففتحوها .

وقد خفى كون مافى الحديبية - فتحاً على بعض الصحابة حتى بيَّنه -عليه الصلاة والسلام-

أخرج البيهقى عن عروة قال : أقبل رسول الله - صلى ﷺ من الحديبية راجعاً فقال رجل من أصحاب رسول الله : والله ماهذا بفتح ؛ لقد صُدِدْنا عن البيت وصُدَّ هدينا ، وعكف رسول الله بالحديبية ، وَرَدَّ رجلين من المسلمين خرجا ، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك - فقال : « بئس الكلام هذا ، بل هو أعظم الفتح ، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألونكم القضية ، ويرغبون إليكم فى الأمان ، وقد كرهوا منكم ماكرهوا ، وقد أظفركم الله عليهم ، وردكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح ، أنسيتم يوم أُحُد ؟ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم ؛ أنسيتم يوم الأحزاب ؟ إذجاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » ؟ قال المسلمون : صدق الله ورسوله ، هو أعظم الفتوح ، والله يانبى الله ما فكرنا

فيما ذكرت ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا . وذهب جماعة إلى أن المراد بالفتح الوارد فى السورة فتح مكة وهو – كما فى زاد المعاد – الفتح الأعظم الّذى أعزّ الله به دينه ، واستنقذ به بلده وطهّر حرمه ، واستبشر به أهل السماء ، ودخل الناس بعده فى دين الله أفواجاً ، وأشرق وجه الأرض به ضياءً وابتهاجاً .

وعلى هذا الرأى فنى مجىء المستقبل بصيغة الماضى فى قوله – تعالى – : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً) تنزيله منزلة المحقق ، وفيه من الفخامة والدّلالة على علوّ شأن المخبِر ما لايخفى – كما فى الكشّاف – وذلك – على ما قيل – لأنه يدلّ على أنّ الأزمنة كلّها عند الله على السّواء وأنّ مُنْتَظَره كمُحَقَّقِ غيره ، وأنّه – سبحانه – إذا أراد أمرًا تحقّق لامحالة ، وأنّه – لجلالة شأنه – إذا أخبر عن حادث فهو كالكائن لما عنده من الأسباب القريبة والبعيدة .

ولم يُذْكر المفعولُ للقصد إلى نفس الفعل والإيذان بأنّ مناط التبشير نفس الفتح الصادر عنه – سبحانه – لاخصوصية المفتوح ، وذكر لفظ (لَكَ) فى الآية لبيان مقام الرسول الرّفيع عند الله – عزّ وجلّ – .

٢ – ٣ – (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً * وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا) :

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) أى : ليغفر لك الله ما تقدم وما تأخر مما يعد ذنبا لمثلك ، فهو من قبيل : حسنات الأبرار سيئات المُقَرَّبين . أو ليغفر لك ماهو ذنب فى نظرك ، وإنْ لم يكن ذنباً ولاخلاف الأَولَى عنده – تعالى – كما ترشد إلى ذلك الإضافة فى لفظة (ذَنبِكَ) وقد صح أنه ﷺ لما نزلت صام وصلى حتى انتفخت قدماه ، فقيل له : أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا » (وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) أى : ويكمّل نعمته عليك بإعلاء الدين وانتشاره فى البلاد ، وغير ذلك مما أفاضه الله – تعالى – عليه من النعم الدّينيّة والدّنيوية بعد الفتح

(وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً) أى : ويرشدك إلى الطَّريق المستقيم فى تبليغ الرِّسالة وإقامة الحدود وبما يُشَرِّعه الله لك من الشَّرع العظيم والدِّين القويم .

وهذا وإن كان حاصلا قبل الفتح لكن حصل بعد ذلك من اتِّضاح سُبُل الحقّ واستقامة مناهجه مالم يكن حاصلا من قبل .

(وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا) أى : وينصرك الله على أعداء الرّساله والكافرين بالدّعوة والمحاربين لها نصراً يعز وجود مثله ويصعب مناله ويرفع به قدرك وذلك بسبب تواضعك وشدة خضوعك لأمر الله – عزّ وجلّ – كما جاء فى الحديث الصَّحيح : «ما زاد الله عبدا بعَفْو إلا عزًّا ، وما تواضع أحد لله – عزّ وجلّ – إلا رفعه الله » قال الآلوسى : وفى الكشّاف : لم يجعل الفتح علّة للمغفرة ، لكن لاجتماع ماعدّد من الأُمور الأَربعة وهى :

١ – المغفرة .

٢ – وإتمام النِّعمة .

٣ – وهداية الصِّراط المستقيم .

٤ – والنَّصر العزيز كأنه قيل : يَسّرنا لك فتح مكَّة ونصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عزّ الدارين وأغراض العاجل والآجل .

وحاصله أن الفتح علة لمجموع المتعاطفات ، لا لكل واحدة منها على حدة .

وقال الصّدر : أظهر الاسم الجليل فى الصّدر فى قوله – تعالى – : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ) وهنا فى قوله :(وَيَنصُرَكَ اللَّهُ)؛ لأن المغفرة تتعلّق بالآخرة والنّصر يتعلّق بالدُّنيا فكأنَّه أُشير بإسناد المغفرة والنَّصر إلى صريح اسمه – تعالى – إلى أن الله – عزّ وجلّ – هو الَّذى يتولّى أمرك فى الدُّنيا والآخرة ، وقال الإمام : أُظهرت الجلالة فى قوله : (وَيَنصُرَكَ اللَّهُ) إشارة إلى أن النَّصر لايكون إلا من عند الله ، كما قال – تعالى – : « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندَ اللَّهِ »[1] .

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٢٦

(هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟
إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ
وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ
ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾)

المفـــردات :

(السَّكِينَةَ) : الطمأنينة والثبات والسُّكون .

(ظَنَّ السَّوْءِ) : ظنّ الأمر الفاسد المذموم ، وهو أنّ اللهَ لاينصر نبيّه والمؤمنين .

(عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ) : دعاء عليهم بالهلاك والدّمار الّذِى يتربّصونه بالمؤمنين .

التفســـير

٤ ـ (هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلهِ جُنُودُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) :

بيان لما أنعم الله به عليهم من مبادىء الفتح ، أى : هو وحده ـ سبحانه ـ الّذِى أنزل

الطمأنينة فى قلوب المؤمنين بسبب الصلح والأمن ؛ ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف والهدنة بدل القتال ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ويقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها .

أو : هو الَّذِى أنزل فى قلوب المؤمنين السُّكون والاطمئنان إلى ما جاء به الرّسول من الشرائع ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم بالله واليوم الآخر ، والرأى الأول أظهر .

وبهذه الآية الكريمة وبنصوص كثيرة أخرى ، ومنها ما روى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – : قلنا : يا رسول الله ، إنَّ الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : « نعم ، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار » أقول : بهذا وبأمثاله استدل جمهور الأشاعرة والفقهاء والمحدثين والمعتزلة على أنَّ الإيمان يزيد وينقص ، ونقل ذلك عن الشافعى ومالك ، وقال البُخارىّ : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت واحداً منهم يختلف فى أنَّ الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص .

وهذه قولة حقٌّ ، وإلَّا لكان إيمان آحاد الأمة المنهمكين فى الفسق والمعاصى مساوياً لإيمان الأنبياء والصديقين .

وقال جماعة من العلماء أعظمهم الإمام أبو حنيفة وتبعه صحبه وكثير من المُتكلمين : الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، واحتجوا بأنه اسم للتصديق البالغ حدّ الجزْم والإذعان وهذا لا يُتصَور فيه زيادة ولا نقصان ، واختار هذا الرَّأى إمام الحرمين ، وفى هذا الموضوع كلام كثير ذكره العلامة الآلوسى وغيره فليرجع إليه فى الموسوعات من أراد التّوسّع فى هذا المقام .

ثم ذكر سبحانه – أنّه لو شاء لانتقم من الكافرين فقال : (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) أى : ولله جنود السّموات والأرض يُدَبِّر أمرها كيفما يريد ، فيُسَلِّط بعضها على بعض تارة ، ويجعل السّلم بينها تارة أخرى حسبما تقتضيه مشيئته ، ومن ذلك ما وقع فى الحديبية ، ولو أرسل على الكفّار ملكا واحدا لأباد خضراءهم ولكنّه – سبحانه – شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال ليثيبهم عليه ، وكان اللهُ

ولا يزال – مُحيطا علمه بجميع الأُمور ، ذا حكمة بالغة يضع الشىء فى موضعه اللآئق على مقتضى حكمته .

٥ – (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزًا عَظِيماً) :

أخرج ابن جرير وجماعة عن أنس قال : أُنزلت على النبىّ ﷺ : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) فى مرجعه من الحديبية ، فقال : « لقد أُنزلت علىّ آية هى أحبّ إلىّ مما على الأَرض » ثم قرأها عليهم ، فقالوا : هنيئاً مريئًا يا رسول الله ، قد بيّن اللهُ – تعالى – ذلك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . . . .) حتى ، بلغ (فَوْزًا عَظِيماً) آلوسى .

وهذه الآية وما بعدها علّة لما دلّ عليه قوله – تعالى – :(وَلِلهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) من التصرف والتدبير أى : دبّر – سبحانه وتعالى – ما دبّر من تسليط المؤمنين ونصرهم على الكافرين؛ ليعرفوا نعمة الله فى ذلك ويشكروها ، فيدخلهم ربّهم جنّات تجرى من تحتها الأَنهار دائمين فيها باقين أبدا ، ويمحو عنهم سيّئاتهم ولا يؤَاخذ عليها بل يعفو ويرحم ويصفح ويغفر ، وكان ذلك الجزاء عند الله فوزا بالغ العظم؛ لأَنه منتهى ما تصبو إليه النّفوس ، وتهوى الأَفئدة .

وذكر المؤمنات فى الآية بعد المؤمنين دفعا لتوهم اختصاص الحكم بالذكور؛ لأَن الجهاد والفتح على أَيديهم ، وهكذا فى كل موضع يوهم الاختصاص يصرّح بذكر النّساء .

وتقديم الإِدخال فى الذِّكر على التّكفير – مع أَنّ التّرتيب فى الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلوب الأَعلى ، قال الآلوسى : ويجوز عندى أن يكون التّكفير فى الجنّة ، على أنّ المعنى : يُدخلهم الجنّة ويُغطى سيّئاتهم ويسترها عنهم فلا تمرّ لهم ببال ولا يذكرونها أصلا ، لئلا يخجلوا فيتكدر صفو عيشهم .

٦ - (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا) :

قوله - تعالى - : (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ) عطف على قوله - تعالى - : (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) أى : فعل الله ما فعل ودبرما دبر ليُدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات تجرى من تحتها الأنهار ، ويُعذّب المَنافقين الّذين يُظهرون خلاف ما يُبطنون والمنافقات ، والمشركين مع الله غيره والمشركات الظانين بالله ظنّا سَيِّئاً ، وهو أنّه - سبحانه - لن ينصر رسوله والمؤمنين ، وكذلك سائر ظنونهم الفاسدة من الشّرك وغيره - عليهم وحدهم دائرة السّوء والهلاك والدّمار ، وما يظنّون ويتربّصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم لا يفلتون منه ، وسَخِط الله عليهم وطردهم من رحمته وأبعدهم عن نعيمه وجَنته ، وأعدّ لعذابهم جهنّم وساءت جهنّم نهاية ، وقبُحت مرجعاً ومآلا لهم .

٧ - (وَلِلّٰهِ جُنُودُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً) :

أى : ولله جُنود السّموات والأرض يدبِّر أمرها بقدرته وحكمته وبأسه وسطوته وكان اللهُ غالبا على كلّ شيء ، ذا حكمة بالغة فى تدبير كُلِّ شأْن .

وقوله - تعالى - : (وَلِلّٰهِ جُنُودُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) ذكرت هذه الآية سابقا ، على أنّ المراد أنّه - عزّ وجلّ - المدبِّر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته ، فلذلك ختمت الآية السابقة بقوله - تعالى - : (وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً) .

وأُعيد ذكرها هنا للتّهديد بأنّهم فى قبضة الله المنتقم ، ولذلك ختمت الآية بقوله - تعالى - : (وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً) فلا تكرار كما قال الشّهاب .

(إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ
فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ
ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾)

المفـــردات :

(وَتُعَزِّرُوهُ) : وتنصروه .

(وَتُوَقِّرُوهُ) : وتُعظِّموه وتُبجِّلوه .

(وَتُسَبِّحُوهُ) : وتُنزِّهوه ، وتُصلّوا له .

(بُكْرَةً وَأَصِيلاً) : غدوة وعشيًّا .

(يُبَايِعُونَكَ [1]) يعاهدونك على الجهاد والانتصار لدعوتك وذلك فى بيعة الرِّضوان بالحُدَيبية .

(إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ) أى : إنّما يعاهدون اللهَ ؛ لأَنَّ المقصود من البيعة إطاعة الله وامتثال أمره .

(يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) أى : قدرته وقوته فوق قدرتهم وقوّتهم .

---

(١) (يبايعونك) مفاعلة من البيع ، يقال : بايع فلان السلطان مبايعة إذا ضمن بذل الطاعة له ، وكثيرا ما تطلق على البيعة المعروفة للسلاطين ونحوهم .

(فَمَن نَّكَثَ) : فمن نقض العهد والبيعة .

(فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ) أى : فإنه يضر نفسه ويوردها موارد الهلكة ، فلا يعود وبال نقضه وضرر نكثه إلا عليه .

التفسير

٨ - (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) :

هذا توضيح وبيان لما بعث من أجله الرّسول ﷺ والمعنى : إنّا أرسلناك يا محمد شاهدا على أمتك لقوله - تعالى - : « وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا »[1] وعن قتادة : شاهدا على أمّتك وشاهدا على الأُمم التى قبلك ، وعلى الأنبياء الذين سبقوك بأنهم قد بلّغوا ، ومبشرا المتّقين بحسن الثّواب على الطّاعة ، ونذيرا للعصاة بالعذاب على المعصية .

٩ - (لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) :

الخطاب للنبى ﷺ ولأُمته كقوله - تعالى - : « يَٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ »[2] . فيفيد أنَّ النّبى مخاطب بالإيمان برسالته كالأُمة ، وقال الواحدى : الخطاب فى (لِتُؤْمِنُوا) وما بعدها للأُمة .

والمعنى : أرسلناك يا محمد شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لكى تؤمنوا يا أمته بالله ورسوله وتنصروا الله بنصر دينه وتعظموه - سبحانه - وتنزّهوه عما لا يليق به أول النهار وآخره .

وقيل : البكرة والأَصيل جميع النهار ، ويكنى بالتعبير عن جميع الشىء بطرفيه . وقال ابن عباس : المراد بهما صلوات الفجر والظهر والعصر .

١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ[3] بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) :

المعنى : إنّ الذين يعاهدونك يا محمد يوم الحُديبية على الجهاد فى سبيل نُصرتِك

---

(١) سورة البقرة من الآية : ١٤٣ (٢) سورة الطلاق من الآية : الأولى

(٣) يقال : وفى بالعهد وأوفى به إذا تممه . وأوفى : لغة تهامة ومنه قوله تعالى : (أوفوا بالعقود) اهـ . كشاف .

إنّما يُعاهدون اللهَ ؛ لأنّ المقصود من بيعة الرّسول وإطاعته : إطاعة الله – تعالى – وامتثال أوامره لقوله – تعالى – : « مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ »(١) .

(يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) : استئناف مُؤكِّد لما قبله ، والمراد بيد الله : قدرته ونصره ، أى : قدرة الله معك وتأييده فوق قدرتهم وتأييدهم ، فَثِق بنصرة الله – تعالى – قبل نصرتهم وإن صدقوا فى مبايعتك . والسّلف يأخذون بظاهر الآية كما جاءت مع تنزيه الله – تعالى – عن الجوارح وصفات الأجسام ، وكذلك يفعلون فى جميع المُتَشابهات يقولون : إنّ معرفة حقيقة ذلك فرع معرفة حقيقة الذّات ، وأنّى ذلك وهيهات هيهات ! !

(فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) أى : فمَن نقض عهدك بعد ميثاقه ورجع فى بيعته بعد تأكيدها وتوثيقها فلا يرجع وبال نقضه إلّا على نفسه ، ولا يعود ضرر نكثه إلّا عليه (وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً) أى : ومن أوفى بالعهد الذى عاهد عليه الله بإتمام بيعتك وألزم نفسه تحقيقها والقيام بأعبائها فسيُعطيه الله ثواباً بالغ العظم وهو الجنّة وما يكون فيها ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر .

من حديث البيعة : بعث الرسول – عليه الصلاة والسلام – عثمان بن عفان – رضى الله عنه – إلى أشراف قريش بمكّة يخبرهم أنّه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا للبيت الحرام ومُعظِّما له ، واحتبسته قريش عندها ، وبلغ الرّسول أنّ عثمان قد قُتِل فقال رسول الله : (لا نبرح حتى نُنَاجز القوم) ودعا النّاس إلى البيعة فكانت بيعة الرّضوان تحت الشّجرة على الموت فى سبيل الله ، أو على ألّا يفرّوا من قريش ، فبايع النّاس ولم يتخلف أحدٌ من الحاضرين إلا الْجدّ بن قيس أحد بنى سلمة ، فكان جابرٌ يقول : لكأنّى أنظر إليه لاَصِقاً بإِبْطِ ناقته قد صبأً إليها يستتر بها من النّاس ، وضرب الرسول بإحدى يديه على الأُخرى مُبَايعا عن عثمان ، وقال : « اللّهم إنّ عثمان فى حاجة الله – تعالى – وحاجة رسوله » ثم أتى رسول الله أنّ الذى كان من أمر عثمان باطل . ا هـ : ملخصا بتصرف عن محمد بن إسحاق فى السير وذكره ابن كثير .

---

(١) سورة النساء من الآية : ٨٠

(سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾)

المفــــردات :

(الْمُخَلَّفُونَ)[1] قال الطَّبرىّ : المُخلَّفون هم الذين تَخلَّفوا فى أهليهم عن صحبة رسول الله يوم الحديبية ، جمعُ مُخلَّف .

(الْأَعْرَابِ) فى المشهور : سكّان البادية من العرب لا واحد له .

(فَمَن يَمْلِكُ لَكُم) : استفهام بمعنى النفى أى : لا أحد يملك لكم .

(وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ) : وهو ظنّهم أن لن ينقلب الرّسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا بل يقتلون .

---

(١) (المخلفون) جمع مخلف : وهو المتروك فى المكان خلف الخارجين من البلد مأخوذ من الخلف ، وضده المقدم .

(بُورًا)[١] ، هالكين لفساد عقيدتكم .

(سَعِيرًا) : نارًا موقدة ملتهبة ، ونكّرت للتّهويل أو التنويع .

التفسير

١١ ــ (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) :

أى : سيقول لك من خلّفهم النِّفاق من أهل البَادية وهم قبائل جُهينة ومُزينة وغِفار وغيرهم ، اسْتنفَرهم رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكّة عام الحديبية ليخرجوا معه حذرا من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدّوه عن البيت ، وأحرم رسول الله ﷺ وساق معه الهدى لِيعلم أنّه لا يُريد حربا ، ورأى أُولئك الأعراب أنّه ــ عليه السلام ــ يستقبل عدوًّا قويّا من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة لمكة وهم الأَحابيش ، ولم يكن الإيمان لدى الأعراب قد تمكّن فى قلوبهم ، فقعدوا عن الخروج مع النبى ﷺ وتَخلفوا عن الجهاد معه ، ، وقالوا : نذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم ؟ وقالوا : لن يرجع مُحمّد ولا أصحابه إلى المدينة من هذه السفرة ففضَحهُم الله فى هذه الآية وأعلم رسوله بقولهم واعتذارهم قبل أن يصلوا إليه ، وحين جاءُوا مُعْتَذرين إليه قائلين :

شغلتنا أموالنا وأَهلونا عن الذِّهاب معك ، إذ لم يكن لنا من يقوم بحفظها ويحميها من الضَّياع ، فاستغفر لنا الله ليغفر لنا تخلُّفَنا عنك ، حيث لم يكن عن تكاسل وتباطؤ فى طاعتك ، فأَنزل الله تكذيبا لهم فى اعتذارهم بما سبق : (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ) أى : إنَّ كلامهم من طرف اللِّسان غيرُ مطابق لما فى الجَنَان ، ثُمَّ أمر ــ سبحانه وتعالى ــ رسوله أن يردّ عليهم عند اعتذارهم بتلك الأَباطيل فقال :

---

(١) بورا : مصدر كالهلك ، أو جمع بائر كباذل وبذل ، وعائذ وعوذ .

(قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا)أى : لايقدر أحد أن يردّ ما أراده الله فيكم ويدفع عنكُم قضاءه إن أراد بكم مايضركم أو أراد بكمماينفعكم ، وليس الشُّغل بالأهل والمال عذرا ، فلا ذاك يدفع الضّرر إن أراده ـ عزَّ وجلَّ ـ ولا محاربة العدوّ تمنع النَّفع إن أراد بكم نفعا ، ثم أعقب ذلك بما يتضمن تهديدا لهم فقال :(بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) أى : بل كان الله بكل ماتعملون محيطا ، فيعلم ـ سبحانه ـ سرَّ تخلُّفكم وقصدكم فيه ، ويجازيكم عليه يوم القيامة ، ثم هتك الله سترهم وبين مكنون ضمائرهم بقوله :

١٢ ـ (بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً) :

والمعنى : لم يكن الأمر كما تقولون ، بل ظننتم أن لن يرجع الرّسول والمؤمنون من ذلك السّفر إلى عشائرهم وذوى قرباهم أبدا ، فلم يكن تخلُّفكم تخلُّف مَعْذور ولا مَقْهور بل تخلُّف نِفاق ؛ لأنَّكم اعتقدتم أنَّ الرّسول ومن معه من المؤمنين سيُقتلون وتُستَأْصل شَأْفَتُهم ، وتُبادُ خَضْرَاؤُهم ولايرجع منهم أحد ، فتخلَّفتم لذلك ، وحسّن لكم الشيطان والنِّفاق ذلك الظَّن الخبيث فى قلوبكم ، حتى تمكَّن منكمْ وحملكم على مافعلتم ، فاشتغلتم بشأْن أنفسكم ومصلحة ذواتكم غير مبالين بالرّسول ﷺ وبالمؤمنين . (وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ) وهو ظنهم ألاَّ يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وأعيد لفظ (ظَنَنتُمْ) لتشديد التوبيخ والتسجيل عليهم بالسّوء ، أو هو عام فيشمل ذلك الظنَّ وسائر ظنونهم الفاسدة الَّتى من جملتها الظَّن بعدم رسالته ﷺ فإن الجازم بصحّتها لايحوم فكره حول ماذُكِر من الاسْتِئْصَال للرّسول وأصحابه ، وكنتم فى علم الله الأزلىّ قوماً هالكين ، لفساد عقيدتكم وسوء نيّتكم ، أو فاسدين فى أنفسكم وقلوبكم ونياتكم ولاخير فيكم .

١٣ ـ (وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً) :

هذا كلام مبتدأ من جهته ـ عزَّ وَجَلَّ ـ غير داخل فى الكلام السابق ، مُقرِّر لبوارهم وهلاكهم ، ومبين لكيفيته ، أى : ومن لم يُصدِّق بالله ورسوله كهؤلاء المخلَّفين فإنَّا أعددنا

للكافرين نارا مسعورة موقدة ملتهبة ، وكان الظّاهر أن يقال : فإنّا أعددنا لهم ، فعدل عن ذلك إلى الظاهر وهو لفظ (الكافرين) إيذانا بأنّ من لم يجمع بين الإيمان بالله - سبحانه - والإيمان برسوله ﷺ فهو كافر مستحق للسّعير بكفره .

١٤- (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً) :

أى : ولله - وحده - ملك السّموات والأرض يدبّره تدبير قادر حكيم ، وهو - جلّ شأنه - المتصرّف فى الجميع كما يشاء ، - له هذا الملك - يغفر لمن يشاء المغفرة له ويعذّب من يشاء أن يُعَذّبه ، من غير دخل لأحد فى شئ من غفرانه أو تعذيبه ، وكان الله - ولايزال - عظيم المغفرة لمن يشاء ، ولايشاء - سبحانه - المغفرة إلا لمن تقتضى الحكمة المغفرة له ممن يؤمن بالله وبرسوله ، وأما من عدا ذلك من الكافرين المُجَاهرين والمنافقين فهم بمعزل عن ذلك ، وفى تقديم المغفرة وختم الآية بكونه (غَفُوراً رَّحِيماً) بصيغة المبالغة فيهما فيه من واسع غفرانه وعظيم رحمته مافيه ، وفى الحديث : « كتب ربكم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق : رحمتى سبقت غضبى » أى : قضى بذلك وأوجبه على نفسه ، والآية كما قال أبو حيّان لبعث الرجاء فى قلوب المنافقين إذا آمنوا حقيقة ، وقيل : لقطع أطماعهم الفارغة فى طلب استغفاره - عليه السّلام - لهم .

(سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾)

المفــردات :

(ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) : اتركونا نخرج معكم لخيبر .

(كَلَامَ اللهِ) : حكمه القاضى باختصاص أهل الحديبية بمغانم خيبر .

التفسـير

١٥ - (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا) :

المراد من المغانم هنا مغانم خيبر التى انطلقوا إليها بعد الحديبية كما عليه عامّة المُفسِّرين وأُيِّد بأن السِّين تدلّ على القرب ، وخيبر أقرب المغانم التى انطلقوا إليها من الحديبية فإرادتها كالمتعينة ، وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أن الله وعد أهل الحُديبية أن يُعَوِّضهم من مغانم مكة مغانم خيبر إذا قفلوا مُوَادِعين لايُصيبون شيئا ، وخصّ - سبحانه - ذلك بهم .

والمعنى : سيقول الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى عمرة الحديبية : إذا ذهبتم إلى مغانم لتأخذوها (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) : دعونا واتركونا نخرج معكم إلى خيبر

ونشهد معكم قتال أهلها ، وذلك لطمعهم فى عرض الدنيا لِمَا يرون من ضعف العدوّ ، ويتحققون النصر عليه ، يريدون بذلك تغيير كلام الله ووعده وحكمه وقضائه باختصاص أهل الحُديبية بمغانم خيبر ، قل لهم يامحمّد : لن تتبعونا ، والمراد نهيهم عن الاتباع الذى أرادوه من قولهم : (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) وهو الانطلاق معهم إلى خيبر .

(كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ) أى : مثل ذلك الحكم بعدم اتباعكم لهم – حكم الله– من قبل ذلك بتلك الغنائم لمن خرج إلى الغزو مع رسوله فى عمرة الحديبية (فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا) أى : فسيقول المُخلفون للمؤمنين عند سماع هذا النهى : لم يأمركم الله بذلك بل تحسدوننا أن نُشاركم فى هذه الغنائم .

(بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً) أى : ليس الأمر كما زعموا بل كانوا لايفهمون إلّا فهما قليلا ، وهو فهمهم لبعض أمور الدُّنيا ، وهو ردّ لقولهم الباطل فى المؤمنين ، ووصف لهم بما هو شر من الحسد وهو الجهل المفرط وسوء الفهم فى أمور الدين .

(قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾)

المفـــردات :

(أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) : أصحاب شدّة وقوّة فى الحرب.

(فَإِن تُطِعُواْ) أى : تستجيبوا وتنفروا للجهاد .

(حَرَجٌ) : إثم فى التخلف عن الجهاد وقتال الكفار .

التفسير

١٦ـ (قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنَ تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً) :

المعنى : قل للمُتخلِّفين من أهل البادية الذين دُعُوا للخروج مع رسول الله زمن الحُديبية فتقاعسوا – قل لهم – : سَتُدْعَوْن إلى قتال قوم ذوى شدَّة وبأس وقوّة فى الحرب ، شُرِع لكم جهادهم ، وقتالهم ، ولكم النُّصرة عليهم أو يُسْلمون فيدخلون

فى دينكم بلا قتال بل باختيارهم ، فإن تستجيبوا لهـذه الدّعوة وتلبّوا أمر الله وداعى الجهاد يعظم الله لكم الأجر فى الدّنيا بالغنيمة ، وحسن الأُحدوثة والذِّكر ، وفى الآخرة بالجنَّة ، وإن تُعْرِضُوا عن الجهاد وتُصِمّوا آذانكم عن داعى الله كما أعرضتم من قبل عن الخروج إلى الحديبية يعذبكم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة لتضاعف جُرمكم . وهنا أمور :

١ – قال – تعالى – : (قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ) كررّ ذكرهم بهذا العنوان مبالغة فى ذمّهم وإشعارا بقُبْح التخلف وشناعة القُعود عن الجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه.

٢ – اختلف المُفسِّرون فى هؤلاء القوم الذين سيُدْعَوْن إلى قتالهم وهم أُولوا بأس شديد على أقوال : فرجّح الزّمخشرىّ والآلوسىّ : أنّ المراد بهم بنو حنيفة قوم مسيلمة وأهل الرّدة الّذين حاربهم أبو بكر – رضى الله عنه – لأنّ مشركى العرب والمرتدّين هم الّذين لايُقبل منهم إلاّ الإسلام أو السّيف عند أبى حنيفة ، ومن عداهم من مشركى العجم وأهل الكتاب والمجوس تُقبل منهم الجزية ، وعند الشّافعىّ لاتُقبل الجزية إلاّ من أهل الكتاب والمجوس دون مشركى العجم والعرب (راجع الآلوسى والكشاف) .

وعن عطاء والحسن : المراد بهم الفرس والرّوم ، وفسَّر القائلون بهـذا الرأى قوله – تعالى – : (أَوْ يُسْلِمُونَ) بـأو ينقادون؛ لأنّ الرّوم نصارى، وفارس مجوس يُقْبَل منهم إعطاء الجزية ، وعن قتادة : ثقيف وهوازن ، وعن سفيان : هم الترك ، وقيل : هم الأكراد (ابن كثير والكشاف) .

٣ – ذكر الزّمخشرىّ والآلوسىّ : أنّه شاع الاستدلال بهذه الآية على صِحّة إمامة أبى بكر – رضى الله عنه – قال الآلوسى : والإنصاف أنّ الآية لاتكاد تصحّ دليلا على إمامة الصّديق – رضى الله عنه – إلاّ إن صحّ خبر مرفوع فى كون المراد بالقوم بنى حنيفة[١] ، ودون ذلك خرط[٢] القتاد (آلوسى) .

---

(١) هم قوم مسيلمة الكذاب (٢) القتاد : شجر له شوك ، وخرط القتاد : تنظيفه من الشوك .

١٧ـ(لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا) :

ذكر الله – سبحانه وتعالى – فى هذه الآية الكريمة الأعذار المبيحة لترك الجهاد فمنها ماهو لازم كالعمى والعرج البيِّن ، ومنها ماهو عارض كالمرض الَّذى يطرأ أيّاما ثم يزول ، فهو فى حال مرضه مُلْحق بذوى الأعذار اللّازمة حتى يبرأ فقال : (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) أى : ليس على الأعمى إثم فى التخلُّف عن الجهادِ فى سبيلِ الله ، ولا على الأعرج إثم ولا على المريض إثم كذلك لما بهم من العذر والعاهة ، وليس فى نفى الإثم عنهم نهى لهم عن الغزو ، بل قالوا : إن أجرهم مضاعف إذا خرجوا للقتال ، ولقد غزا ابن أُمّ مكتوم – رضى الله عنه – وكان أعمى ، وحضر فى بعض حروب القادسيّة وكان يحمل الرّاية ، كما غزا بعض العلماء (وهو أعمى) مع الجيش الإسلامىّ وهو يحارب التّتار والصّليبيِّين ولما سُئِل عن ذلك – وقد أذن الله له فى ترك الجهاد – وما سَيُقدِّم من خدمات للجيش المقاتل ؟ فقال: أُكثِّر سواد المسلمين وأحرس متاعهم وأُحرِّضهم على القتال ، وأستجيب لقول الله : « انفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً »[1] وفى البحر : « لو حُصِر المسلمون فالغَرضُ مُتوجِّه بحسب الوُسْع فى الجهاد»

ثم قال – تبارك وتعالى – مُرَغِّبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله : (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً) أى : ومن يُطع الله ورسوله فى كل ماذُكر من الأوامر والنّواهى يدخله جنّات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يُعرض عن طاعة الله ورسوله يعذِّبه عذابا بالغ الألم بالذِّلة والصّغار فى الدّنيا والنّار فى الآخرة ، وقيل فى الوعيد :(يُعَذِّبْهُ) إلخ دون يدخله نارا أو نحوه؛ لأنَّ العقاب يوم القيامة بالعذاب الأليم يستلزم إدخال النار ، وإدخالهم فيها لايستلزم ذلك ، والله أعلم .

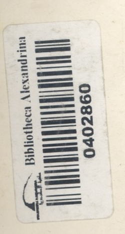
(١) سورة التوبة من الآية : ٤١

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩ / ١٩٨٧

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٧٦٩٢س ١٩٨٧ – ٤ ٢٥,٠٠



٢٥